

أزهار الرياض في أخبار عياض

وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني

(٩٨٦ - ١٠٤١ هـ)

طبعة مزيّدة ومنقّحة

تحقيق

الدكتور على عمر

بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية

بجامعة المنيا والإمام بالرياض

ومن الباحثين بمركز تحقيق التراث (سابقا)

الجزء الخامس

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

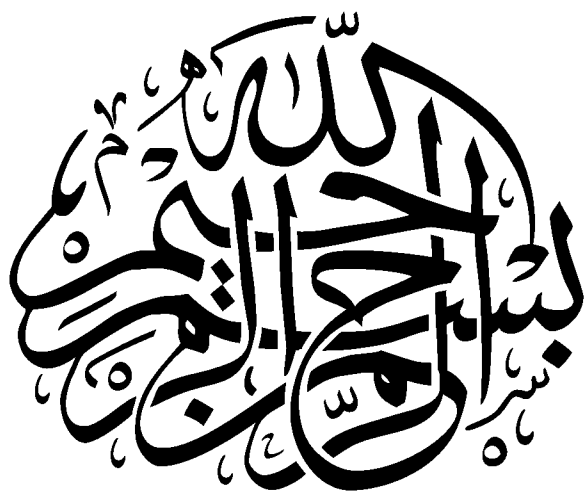
الطبعة الاولى
1431هـ-2010
حقوق الطبع محفوظة للناسر
الناسر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعد - القاهرة
25936277 / فاكس: 25938411-25922620
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

المقرى، احمد بن محمد احمد بن يحيى ، 1584-1631
ازهار الرياض فى اخبار عياض
تأليف : شهاب الدين احمد بن محمد المقرى التمسلى ، تحقيق: على عمر
ط1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2010
5مج ، سم
تسك : 3-499-341-977-978
1- المحثون المغاربة
2- القاضى عياض ، عياض بن موسى بن عياض
ا- عمر، على (محقق)
ب- العنوان

ديوى: 922.13

رقم الابداع: 16755



ومما لم يكمله من مؤلفاته . كتاب «الفنون الستة» ، فى أخبار سبته» .
وكتاب «غنية الكاتب ، وبغية الطالب» - فى الصدور والترسيل .

هكذا قال ابن الخطيب وقال ابن خاتمة فى «مزية ألمرية» وكتاب فيه
سؤالات وترسيل له - فى نحو أربعة أسفار . وانظر هذا الذى قال ابن خاتمة ،
هل هو «غنية الطالب» المذكور أو غيره؟ وكتاب تاريخ المرابطين - انتهى فيه
إلى سنة أربعين وخمسائة ، قال ذلك ابن خاتمة فى «المزية» .

وقال ابن حمادة البرنسى : إنه ألف كتاب جامع التاريخ . فأربى على
جميع المؤلفات : فيه أخبار الملوك بالأندلس والمغرب منذ دخول الإسلام
إليهما . واستوعب فيه أخبار سبته ، وقضاتها وفقهائها ، وجميع ما جرى من
الأمور فيها . واستوعب أخبار الدولة الحسنية .

قال جامع هذا التأليف : انظر هذا ، هل هو المذكور عند ابن خاتمة أو
غيره . وكتاب «الأجوبة المحبرة ، على المسائل المتخيرة» .

قال ابنه : وجدت منها يسيرا فضمته إلى ما وجدته فى بطائقه . وعند
أصحابه من معان شاذة فى أنواع شتى . سئل عنها - رحمة الله عليه -
فأجاب : جمعت ذلك فى جزء . وكتاب أجوبة القرطبيين . قال ابنه : رأيت
هذه الترجمة بخطه . ولم أجد لها عنده مبيضة . غير أنى وجدتها بطائق
فجمعتها مع أجوبة غيرهم وأجوبته مما نزل فى أيام قضائه من نوازل الأحكام
فى سفرين . وكتاب «سر السراة فى آداب القضاة» .

قال ابن خاتمة فى «المزية» للقاضى عياض - رحمه الله - تأليف مفيدة
كتبها الناس عنه وانتفعوا بها . وكثر استعمال كل طائفة لها - انتهى .

وقال الإمام الرحال أبو عبد الله بن جابر الوادى آشى - رحمه الله
حدثنى شيخنا الفقيه الكاتب البليغ المجاور بحرم رسول الله - ﷺ . المدفون
فى بقيعه أبو القاسم خلف ابن الشيخ المرحوم أبى الإصبع عبد العزيز بن
محمد الغافقى القبتورى . أنه تذاكر مع بعض أصحابه ببجاية أبا الفضل هذا
وتوالياه ، فأنشده فيه ارتجالا بها . وذلك فى أواسط ربيع الأول المبارك من عام
خمسة وتسعين وستمائة . وسمعتها منها بتونس بمنزله عند جوازه مشرقا علينا
فى أوائل رجب من العام المذكور .

عياض إمام لا يضاهى جلاله	فما عوض من كتبه الدهر بالملفى
مشاركه إكماله شهدا له	بسبق أرى السباق فيه له خلفا
وحسبك ريا بالشفاء لذى صدى	لمودعه من وصف خير الورى أشفى
وأعجب تنبيهاته اللاء أوسعت	غوامض أعيت رائمى فهمها كشفا
وما مدرك شأو له فى مدارك	فإحسانه إحسان ما قبلها قفى
وكم ذا له من مثلهن مصنفا	تقرط أذن الدهر من ذهب شنفنا
وليس يوفى الدهر حصر محاسن	بها فخر عصر كان منجبه وفى
وما غير إحفاء لسن يراعه	يفيد الذى فى البحث عن فضله أحفى

ولما شرعت فى هذا المجموع الموسوم بـ «أزهار الرياض» ، فى أخبار
عياض» وذكرت يوما هذه التسمية لصاحبنا الفقيه النبيه الأديب ، سيدى على
ابن أحمد الشامى - حفظه الله ، واستنهضت فكره السليم لنظم يصلح إثباته
هنا فى وصف القاضى عياض وكتبه وغير ذلك . فكتب لى من الغد ما نصه :

يمينا ما الأزاهر فى رياض ولا الغزلان فى ورد الحياض
ولا الخيلان فى الوجنات تبدو لصب لامعات فى بياض
ولا الغدران فى الفلوات تندى لصاد نابعات فى افتياض
بأبدع من تألف منتماة إلى قاضى أئمتنا عياض
وحذف الياء من تأليف. وقد تقدم مثله فى نظم الإمام أبى القاسم بن
رضوان.

وأنشدنى المذكور حفظه الله تعالى أيضا:

عياض سمت فخرا تأليفك التى حوت ما حوت من حسن ربح لمبتاع
من لم تكن منها لديه ذخيرة فلا نال من دنياه نفعا بامتاع
فائدة: فى تعليق البسيلي على التفسير مما التقطه من كلام شيخه ابن
عرفة - أن تقى الدين بن تيمية قال - لما رأى شفاء القاضى أبى الفضل
عياض - غلا هذا المغيربى! قال: وإلى الرد عليه أشار شيخنا ابن عرفة -
رحمه الله - تعالى بقوله:

شفاء عياض فى كمال نبينا كواصف ضوء الشمس ناظر قرصها
فلا غرو فى تبليغه كنه وصفه وفى عجزه عن وصفه كنه شخصها
وإن شئت شبهه بذكر أماراة بأصل لبرهان مبين لنقصها
وهذا لقول قيل عن زائع: غلا عياض فتبت ذاته عن محيصها
ونسب البسيلي المذكور لابن تيمية القول بالجهة، وكتب بعضهم على
طرة البسيلي ما نصه: رأيت أسئلته - أى ابن تيمية - فى أسفار فلا تسأل عن

اطلاعه وحسن تصرفه، والتجسيم نسبة له أبو حيان فى آية الكرسى . وأبو حيان مدحه بقصيدة، ثم عاداه، فوجب التوقف فى نقله لأجلها، ولم يزل حاله فى ظهور حتى ناظر السبكيين، ومناظرته معهم حجة باهرة فى فضله، وقد أثنى على عياض فلا يصح عنه ذمه، أو أراد أن القتل لا يقول به من الأربعة غير مالك، ولهذا رد حكم هذا الباب إليه فى البلاد المشرقية - انتهى ما فى الطرة.

قلت: أما علمه، فأمر لا ينكر ولا يجحد، وقد رأيت مؤلفا فى التعريف به، ومحاشاته عما نسب إليه من التجسيم وغيره من المقالات الشنعية، وذكر فيه قصيدة أبى حيان التى مدحه بها وثناء الأكابر عليه. وغير ذلك من أموره. وكتب بالموافقة على ذلك، الحافظ ابن حجر والعينى والبساطى وغيرهم، وقال بعض هؤلاء: إن مسألة الزيارة التى رد عليه فيها السبكى. لا توجب فى حقه بدعة، وغاية ما هنالك أنه أخطأ فيها، والتسليم فى أمره أسلم، وهؤلاء نزهوه عن القول بالجهة، وهم أعرف بحاله من غيرهم - وإن صرح بخلاف ذلك غير واحد من المغاربة. منهم الحاج الرحال ابن بطوطة. فإنه قال فى رحلته، شاهدته نزل درجة وقال: إن الله ينزل كما أنزل انتهى - عياذا بالله من هذه المقالة! وقد صرح بذلك أيضا بعض سلفنا، وهو الإمام القاضى أبو عبد الله محمد بن أحمد المقرئ التلمسانى - رحمه الله - فى أول رحلته المسماة بـ «نظم اللآلى، فى سلوك الأمالى» - عندما تعرض لشيخه ابنى الإمام التلمسانين، وهأنا أثبت كلامه بطوله لم اشتمل عليه من ذكر أمر ابن تيمية وغير ذلك من الفوائد البديعة. وقد بدأ بهذين الشيخين فى رحلته المذكورة بعد أن قدم ذكر نسب نفسه وأوليته - حسبما

ننقل ذلك بقريب - إن شاء الله سبحانه وتعالى ، لأننا سنتعرض للتعريف به إذ قد عرفنا بغيره من الأعلام ، فتعين أن نذكره ، لأن الإنسان مجبول على خبر أسلافه ، ومن له به تعلق ، ونص كلامه .

فممن أخذت عنه واستفدت منه ، علماها - يعني تلمسان - الشامخان ، وعالماها الراسخان ، أبو زيد عبد الرحمن ، وأبو موسى عيسى ، ابنا محمد بن عبد الله ابن الإمام ، وكانا قد رحلا في شبابهما من بلدهما برشك إلى تونس ، فأخذنا بها عن ابن جماعة وابن العطار ، واليفرنى ، تلك الحلبة ، وأدركا المرجاني وطبقته من أعجاز المائة السابعة ، ثم وردا في أول المائة الثامنة تلمسان على أمير المؤمنين أبى يعقوب وهو محاصر لها . وفقه حضرته يومئذ ، أبو الحسن على بن يخلف التنسى ، وكان قد خرج إليه برسالة من صاحب تلمسان المحصورة فلم يعد ، وارتفع شأنه عند أبى يعقوب حتى إنه شهد جنازته ، ولم يشهد جنازة أحد ممن قبله ، وقام على قبره وقال : نعم صاحب فقدنا اليوم^(١) .

حدثنى الحاج الشيخ بعباد تلمسان ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق العجيسى أن أبا يعقوب طلع إلى جنازة التنسى فى الخيل حوالى روضة الشيخ أبى مدين فقال لى ، كيف تتركون الخيل تصل إلى ضريح الشيخ؟ هلا عرضتم هنالك - وأشار إلى حيث المعراض الآن خشبة؟ ففعلنا . فلما قتل أبو يعقوب . وخرج المحصوران . أنكرا ذلك فأخبرتهما ، فأما أبو زيان - وكان السلطان يومئذ - فنزل وطأطأ رأسه ودخل^(٢) .

(١) نفح الطيب ٢١٥/٥ .

(٢) نفح الطيب ٢١٥/٥ .

وأما أبو حمو - وكان أميرا - فوثب وخلفها. ولما رجع الملك إلى هذين الرجلين. اختصا ابني الإمام، وكان أبو حكو أشد اعتناء بهما. ثم بعده ابنه أبو تاشفين، ثم زادت حظوتهما عند أمير المسلمين أبي الحسن - إلى أن توفي أبو زيد في العشر الأوسط من شهر رمضان الذي من عام أحد وأربعين وسبعمائة بعد وقعة طريف بأشهر. فزادت مرتبة أبي موسى عنده إلى أن كان من أمر السلطان بإفريقية ما كان في أول عام تسعة وأربعين، وكان أبو موسى قد صدر عنه قبل الوقعة، فتوجه صحبة ابنه أمير المؤمنين أبي عنان إلى فاس. ثم رده إلى تلمسان - وقد استولى عليها عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراس بن زيان، فكان عنده إلى أن مات الفقيه عقب الطاعون العام^(١).

قال لى خطيب الحضرة الفاسية، أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن عباد الرندي - لما أزمع الفقيه ومن أطلق معه على القفول إلى تلمسان بت على تشييعهم، فرأيت كأني نظمت هذا البيت في المنام:

وعند وداع القوم ودعت سلوتي وقلت لها بينى فأنت المودع^(٢)

فانتبهت وهو في فيّ، فحاولت قريحتي بالزيادة عليه فلم يتيسر لى مثله. ولما استحكم ملك أبي تاشفين واستوثق، رحل الفقيهان إلى المشرق في حدود العشرين وسبعمائة، فلقيا علاء الدين القونوى وكان بحيث إنى لما رحلت، فلقيت أبا على حسين بن حسين ببجاية، قال لى، إن قدرت أن لا يفوتك شيء من كلام علاء الدين القونوى حتى تكتب جميعه فافعل، فإنه لا نظير له.

(١) نفح الطيب ٢١٦/٥.

(٢) نفح الطيب ٢١٦/٥.

ولقيا أيضا جلال الدين القزويني صاحب البيان وسمعا صحيح البخاري على الحجار - وقد سمعته أنا عليهما، وناظرا تقى الدين بن تيمية وظهرها عليه، وكان ذلك من أسباب محنته.

وكانت له مقالات شنيعة من إمرار حديث النزول على ظاهره. وقوله فيه: كنزولي هذا. وقوله فيمن سافر إلى المدينة لا ينوي إلا زيارة القبر الكريم، لا يقصر حتى ينوي المسجد لحديث لا تشد الرحال، وكان شديد الإنكار على الإمام فخر الدين.

حدثني شيخى العلامة أبو عبد الله الأبلق. أن عبد الله بن إبراهيم الزمورى أخبره أنه سمع ابن تيمية ينشد لنفسه.

مَحْصَلٌ فِي أَصُولِ الدِّينِ حَاصِلُهُ مِنْ بَعْدِ تَحْصِيلِهِ عِلْمُ بِلَا دِينٍ
أَصْلُ الضَّلَالَةِ وَالْإِفْكَ الْمُبِينِ فَمَا فِيهِ فَأَكْثَرُهُ وَحَى الشَّيَاطِينُ (١)
قال: وكان في يده قضيب فقال: والله لو رأيته لضربته بهذا القضيب هكذا، ثم رفعه ووضعهُ (٢).

وبحسبك ما ظهر لهذين الرجلين من الصيت بالشرق، أنى لما حللت بيت المقدس وعرف به مكاني من الطلب. وذلك أنى قصدت قاضيه شمس الدين بن سالم ليضع لى يده على رسم استوجب به هنالك حقا. فلما أَطْلَلْتُ عَلَيْهِ عَرَفَهُ بى بعض من معه، فقام إلى حتى جلست، ثم سألتى بعض الطلبة بحضرته، فقال لى: إنكم - معشر المالكية - تبيحون للشامى يمر بالمدينة أن يتعدى ميقاتها إلى الجحفة، وقد قال رسول الله - ﷺ - بعد

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٢١٦.

(٢) نفح الطيب ٥/٢١٦.

أن عين المواقيت لأهل الآفاق: هن لهن ولمن مَرَّ عليهن من غير أهلهن، وهذا قد مرَّ على أهل ذى الحليفة، وليس من أهله فيكون له، فقلت له: إن النبي ﷺ قال: من غير أهلهن، أى من غير أهل المواقيت، وهذا سلب كلى، وأنه غير صادق على هذا الفرد ضرورة صدق نقيضه - وهو ألا يجاب الجزئى عليه، لأنه من بعض أهل المواقيت قطعاً، فلما لم يتناوله النص، رجعنا إلى القياس، ولاشك أنه لا يلزم أحداً أن يحرم قبل ميقاته وهو يمر به، لكن من ليس من أهل الجحفة لا يمر بميقاته إذا مر بالمدينة. فوجب عليه الإحرام من ميقاتها، بخلاف أهل الجحفة. فإنها بين أيديهم وهم يمرون عليها، ف وقعت من نفوس أهل البلد بسبب ذلك، فلما عرفت أتانى آت من أهل المغرب فقال لى: تعلم أن مكانك فى نفوس أهل [هذا] البلد مكين^(١)، وقدرك عندهم رفيع، وأنا أعلم انقباضك عن ابنى الإمام. فإن سئلت فانتسب إليهما، فقد سمعت منهما وأخذت عنهما، ولا تظهر العدول عنهما إلى غيرهما، فتضع من قدرك، فإنما أنت عند هؤلاء الناس خليفتهما ووراث علمهما وأن لا أحد فوقهما^(٢).

وليس لما تبنى يد الله هادم

وشهدت مجلساً بين يدى السلطان أبى تاشفين، عبد الرحمن بن أبى حمو، ذكر فيه أبو زيد بن الإمام - أن ابن القاسم مقلد مقيد النظر بأصول مالك، ونازعه أبو موسى عمران بن موسى المشدالى، وادعى أنه مطلق الاجتهاد، واحتج له بمخالفته لبعض ما يرويه ويبلغه عنه لما ليس من قوله، وأتى من ذلك بنظائر كثيرة، قال: فلو تقيد بمذهبه لم يخالفه لغيره، فاستظهر أبو زيد بنص لشرف الدين التلمسانى مثل فيه الاجتهاد المخصوص، باجتهاد ابن القاسم بالنظر إلى مذهب مالك والمزنى إلى الشافعى، فقال عمران، هذا (١) هذا المثبت من نفح الطيب، ومكنُ فلان عند الناس عظم عندهم، فهو مكين. والذى فى المطبوع: «ميكَن».

(٢) نفح الطيب ج ٥ ص ٧٥١ - ٥١٨، وما بين حاصرتين منه.

مثال، والمثال لا تلزم صحته، فصاح به أبو موسى بن الإمام وقال لأبي عبد الله بن أبي عمرو: تكلم. فقال لا أعرف ما قال هذا الفقيه، والذي أذكره من كلام أهل العلم أنه لا يلزم من فساد المثال فساد الممثل، فقال أبو موسى للسلطان، هذا كلام أصولي محقق، فقلت لهما - وأنا يومئذ حديث السن، ما أنصفتما الرجل، فإن المثل كما تؤخذ على جهة التحقيق، كذلك تؤخذ على طريق التقريب، ومن ثم جاء ما قاله الشيخ - أعني ابن أبي عمرو، وكيف لا وهذا سيبويه يقول: وهذا مثال ولا يتكلم به. فإذا صح أن المثال قد يكون تقريبا، فلا يلزم صحة المثال، ولا فساد الممثل لفساده، فهذان القولان من أصل واحد^(١).

وشهدت مجلسا آخر عند هذا السلطان. قرئ فيه على أبي زيد بن الإمام حديث لقنوا موتاكم لا إله إلا الله في صحيح مسلم، فقال له الأستاذ أبو إسحاق ابن حكم السلوى، هذا الملقن محتضر حقيقة، ميت مجازا، فما وجه ترك محتضريكم إلى موتاكم - والأصل الحقيقة؟ فأجابه أبو زيد بجواب لم يقنعه^(٢).

وكنت قد قرأت على الأستاذ بعض التنقيح فقلت: زعم القرافي أن المشتق إنما يكون حقيقة في الحال، مجازا في الاستقبال، مختلفا فيه في الماضي إذا كان محكوما به. أما إذا كان متعلق الحكم كما هنا، فهو حقيقة مطلقا إجماعا، وعلى هذا التقرير لا مجاز فلا سؤال^(٣).

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٢) نفح الطيب ٥/٢١٩.

(٣) نفح الطيب ٥/٢١٩.

لا يقال إنه احتج على ذلك بما فيه نظر، لأننا نقول: إنه نقل الإجماع - وهو أحد الأربعة التي لا يطالب مدعيها بالدليل كما ذكر أيضا، بل نقول إنه أساء حيث احتج في موضع الوفاق، كما أساء اللخمى وغيره في الاحتجاج على وجوب الطهارة ونحوها، بل هذا أشنع لكونه مما علم كونه من الدين بالضرورة، ثم إنا لو سلمنا نفى الإجماع، فلنا أن نقول، إن ذلك إشارة إلى ظهور العلامات التي يعقبها الموت عادة لأن تلقينه قبل ذلك - إن لم يدهش، فقد يوحش، فهو تنبيه على وقت التلقين - أى، لقنوا من تحكمون بأنه ميت، أو نقول: إنما عدل عن الاحتضار لما فيه من الإبهام، ألا ترى اختلافهم فيه، هل أخذ من حضور الملائكة أو حضور الأجل، أو حضور الجلاس، ولا شك أن هذه حالة خفية، يحتاج في نصبها دليلا على الحكم إلى وصف ظاهر يضبطها - وهو ما ذكرناه، أو من حضور الموت، وهو أيضا مما لا يعرف بنفسه بل بالعلامات، فلما وجب اعتبارها. وجب كون تلك التسمية إشارة إليها - والله تعالى أعلم^(١).

كان أبو زيد يقول فيما جاء من الأحاديث من معنى قول ابن أبي زيد: وإذا سلم الإمام فلا يثبت بعد سلامه ولينصرف - إن ذلك بعد أن ينتظر بقدر ما يسلم من خلفه، لئلا يمر بين يدي أحد، وقد ارتفع عنه حكمه، فيكون كالداخل مع المسبوق جمعا بين الأدلة. قلت: وهذا من ملح الفقه^(٢).

اعترض عند أبي زيد قول ابن الحاجب «ولبن الآدمى والمباح طاهر» - بأنه إنما يقال فى الآدمى لبان، فأجاب بالمنع، واحتج بقول النبى ﷺ «اللبن

(١) نفح الطيب ٢١٩/٥.

(٢) نفح الطيب ٢١٩/٥.

للفحل». وأجيب بأن قوله ذلك لتشريكه^(١) المباح معه فى الحكم، لأن اللبان خاص به، وليس موضع تغليب، لأن اللبان ليس بعاقل، ولا حجة على تغليب ما يختص بالعاقل^(٢).

تكلم أبو زيد يوما فى مجلس تدرسه فى الجلوس على الحرير، فاحتج إبراهيم السلوى للمنع بقول أنس: فقمى إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لبس»، فمنع أبو زيد أن يكون إنما أراد باللباس الافتراض فحسب، لاحتمال أن يكون إنما أراد التغطية معه أو وحدها، وذكر حديثا فيه تغطية الحصير. فقلت: كلا الأمرين يسمى لباسا، قال الله عز وجل: ﴿... هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ...﴾ [البقرة] وفيه بحث^(٣)، كان أبو زيد يصحف قول الخونجى فى الجمل، والمقارنات التى يمكن اجتماعه معها. فيقول: والمفارقات. ولعله فى هذا كما قال أبو عمرو بن العلاء للأصمعى لما قرأ عليه:

وغررتنى وزعمت أنك لا بنٌ بالصيف تامرُ

فقال:

وغررتنى وزعمت أنك لا تنى بالضيف تامر^(٤)

فقال: أنت فى تصحيفك أشعر من الخطيئة^(٥)، أو كما حكى عن الشافعى أنه لما صلى بالخليفة فى رمضان، لم يكن يومئذ يحفظ القرآن. فكان ينظر فى المصحف، فصحف آيات، صنعة الله - أصيب به من أساء - إنما

(١) هذا الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «لتشريكه».

(٢) نفح الطيب ٥ / ٢٢٠.

(٣) نفح الطيب ٥ / ٢٢٠.

(٤) نفح الطيب ٥ / ٢٢٠.

(٥) هذا الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «الخطئة».

المشركون نحس - وعدها أباه - تقية الله خير لكم - هذا أن دعوا للرحمن ولدا - لكل امرئ منهم يومئذ شأن يعنيه^(١).

سمعت أبا زيد يقول: إن أبا العباس الغماري التونسي، أول من أدخل «معالم» الإمام فخر الدين للمغرب، وبسبب ما قفل به من الفوائد، رحل أبو القاسم ابن زيتون^(٢).

وسمعه يقول: إن ابن الحاجب ألف كتابه الفقهى من ستين ديوانا، وحفظت من وجادة أنه ذكر عند أبى عبد الله بن قطرال المراكشى. أن ابن الحاجب اختصر الجواهر. فقال: ذكر هذا لأبى عمرو حين فرغ منه، فقال: بل ابن شاس اختصر كتابى. قال ابن قطرال: وهو أعلم بصناعة التأليف من ابن شاس، والإنصاف أنه لا يخرج عنه وعن ابن بشير إلا فى الشئ اليسير، فهما أصلاه ومعتمدها، ولا شك أن له زيادات وتصرفات تنبئ عن رسوخ قدمه وبعد مداه^(٣).

وكان أبو زيد من العلماء الذين يخشون الله. حدثنى أمير المؤمنين المتوكل أبو عنان أن والده أمير المسلمين أبا الحسن، ندب الناس إلى الإعانة بأموالهم على الجهاد، فقال له أبو زيد، لا يصح لك هذا حتى تكنس بيت المال وتصلى فيه ركعتين كما فعل على بن أبى طالب^(٤).

وسأله أبو الفضل بن أبى مدين الكاتب ذات يوم عن حاله - وهو قاعد ينتظر خروج السلطان. فقال له: أما الآن فأنا مشرك، فقال: أعيذك من

(١) نفح الطيب ٢٢١/٥.

(٢) نفح الطيب ٢٢١/٥.

(٣) نفح الطيب ٢٢١/٥.

(٤) نفح الطيب ج ٥ ص ٢٢١.

ذلك، فقال: لم أرد الشرك في التوحيد، لكن في التعظيم والمراقبة، وإلا فأى شيء جلوسى ها هنا^(١).

والشيء يذكر بالشيء، قمت ذات يوم على باب السلطان بمراكش فيمن ينتظر خروجه، فقام إلى جانبي شيخ من الطلبة، وأنشدني لأبي بكر بن خطاب:

أبصرت أبواب الملوك تغص بالر اجين إدراك العُلا والجاه
مترقيين لها فمهما فتحت خروا لأذقان لهم وجباه
فأنفت من ذاك الزحام وأشفقت نفسى على إنضاء جسمى الواهى
ورأيت باب الله ليس عليه من متزاحم فقصدت باب الله
وجعلت من دونهم لى عدة فأنفت من غيى وطول سفاهى^(٢)

قال جامع هذا، أحمد بن محمد المقرئ - وفقه الله - رأيت على قوله ورأيت باب الله - البيت بخط الإمام عالم الدنيا، أبي عبد الله بن مرزوق شارح خليل وصاحب التآليف البديعة، بطرة رحلة القاضي أبي عبد الله المقرئ، مشيرا إلى البيت المذكور ما نصه.

قلت ذلك لسعته أو لقله أهله

إن الكرام كثير فى البلاد وإن قلوا كما غيرهم قل وإن كثروا
قل: ﴿... لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ...﴾ [المائدة] - انتهى^(٣).

(١) نفح الطيب ٢٢١/٥.

(٢) نفح الطيب ٢٢١/٥.

(٣) نفح الطيب ٢٢٢/٥.

رجع: وحدثني شيخ من أهل تلمسان، أنه كان عند أبي زيد مرة فذكر
القيامة وأهوالها، فبكى، فقلت، لا بأس عليك وأنتم أماننا، فصاح صيحة
واسود وجهه، وكاد يتفجر دما، فلما سرى عنه، رفع يديه وطرفه إلى السماء
وقال: اللهم لا تفضحنا مع هذا الرجل، وأخباره كثيرة^(١).

وأما شقيقه أبو موسى، فسمعت عليه كتاب مسلم، واستفدت منه
كثيرا، فمما سألته عنه قول ابن الحاجب في الاستلحاق، وإذا استلحق
مجهول النسب إلى قوله أو الشرع بشهرة^(٢) نسبه - كيف يصح هذا القسم
مع فرضه مجهول النسب؟ فقال: يمكن أن يكون مجهول النسب في حال
الاستلحاق، ثم يشتهر بعد ذلك فيبطل الاستلحاق، فكأنه يقول: ألحقه^(٣)
ابتداء ودواما ما لم يكذبه أحد. هذه في أحد الحالين، إلا أن هذا إنما يتصور
في الدوام فقط^(٤).

ومما سألته عنه أن الموثقين يكتبون الصحة والجواز والطوع على ما يوهم
القطع، وكثيرا ما ينكشف الأمر بخلافه، ولو كتبوا مثلا ظاهر الصحة والجواز
والطوع، لبرئوا من ذلك، فقال لي، لما كان مبنى الشهادة وأصلها العلم - لم
يجمل ذكر الظن ولا ما في معناه احتمال، فإذا أمكن العلم بمضمونها، لم
يجز أن يحمل على غيره، فإذا تعذر كما ها هنا، بنى باطن أمرها على غاية
ما يسعه فيه الإمكان عادة، وأجرى ظاهره على ما لا ينافي أصلها، صيانة
لرونقها ورعاية لما كان ينبغي أن تكون عليه لولا الضرورة. قلت ولذلك عقد

(١) نفح الطيب ٢٢٢/٥.

(٢) في الأصل: «فشهرة» والمثبت من نفح الطيب.

(٣) في الأصل: «لحقه» والمثبت رواية المصنف في النفح.

(٤) نفح الطيب ٢٢٢/٥.

ابن فتوح وغيره عقود الجوائح على ما يوههم العلم بالتقدير، مع أن ذلك إنما يدرك بما غايته الظن في الحرز والتخمين، وكانا معا يذهبان إلى الاختيار وترك التقليد - انتهى^(١) كلام القاضى المقرئ فى حق ابني الإمام

وإذا قد بلغنا إلى هذا الموضع، فلنذكر التعريف بهذا الإمام الذى هو من أشهر أسلافنا فنقول:

قال - رحمه الله - أول كتابه المسمى بـ «نظم اللآلي فى سلوك الأمالي» يقول محمد المقرئ - سمح الله تعالى له ولطف به - كان مولدى بتلمسان أيام أبى حمو^(٢) موسى بن عثمان بن يغمراس بن زيان، وقد وقفت على تاريخ ذلك، ولكنى رأيت الصفح عنه، لأن أبا الحسن ابن مؤمن سأل أبا الطاهر السلفى عن سنه فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت أبا الفتح بن زيان عن سنه فقال لى: أقبل على شأنك، فإنى سألت على بن محمد اللبان عن سنه فقال لى: أقبل على شأنك، فإنى سألت أبا القاسم، حمزة بن يوسف السهمى عن سنه فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت أبا بكر محمد ابن عدى المنقرئ عن سنه، فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت أبا اسماعيل الترمذى عن سنه، فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت بعض أصحاب الشافعى عن سنه، فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت الشافعى عن سنه فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت مالك بن أنس عن سنه فقال: أقبل على شأنك، ليس من المروءة للرجل أن يخبر بسنه^(٣).

(١) نفح الطيب ٢٢٣/٥.

(٢) فى الأصل: «حم» والمثبت لدى المصنف فى نفح الطيب ٢٠٦/٥.

(٣) نفح الطيب ٢٠٦/٥.

وكان الذى اتخذها من سلفنا قرارا، بعد أن كانت لمن قبله مزارا، عبد الرحمن بن أبى بكر بن على المقرئ، صاحب الشيخ أبى مدين، الذى دعا له ولذريته بما ظهر فيهم قبوله وتبين، وهو أبى الخامس، فأنا محمد بن محمد ابن أحمد بن أبى بكر بن يحيى بن عبد الرحمن، وكان هذا الشيخ عروى^(١) الصلاة، حتى إنه ربما امتحن بشء فلم يؤنس منه التفات، ولا اسشعر منه شعور، ويقال إن هذا الحضور مما أدركه من مقامات شيخه أبى مدين^(٢).

ثم قال القاضى أبو عبد الله المقرئ بعد كلام فى ذكر طبقات أسلافنا ما نصه: ولما درج هؤلاء الأسياف، جعل أبناؤهم ينفقون مما تركوا لهم، ولم يقوموا بأمر التثمين قيامهم، وصادفوا توالى الفتن، ولم يسلموا من جور السلاطين، فلم يزل حالهم فى نقصان إلى هذا الزمان فهأنذا لم أدرك من ذلك إلا أثر نعمة، اتخذنا فضوله عيشا، وأصوله حرمة، ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب، وأسباب كثيرة تعين على الطلب، ففرغت - بحول الله عز وجل للقراءة، فاستوعبت أهل البلد لقاء، وأخذت عن بعضهم عرضا وإلقاء، سواء المقيم القاطن، والوراد الظاعن^(٣).

فممن أخذت عند واستفدت منه علماها الشامخان، وعالماها الراسخان، أبو زيد عبد الرحمن، أبو موسى عيسى، ابنا محمد بن عبد الله بن الإمام، ثم ذكر جميع ما قدمناه قريبا ثم قال: وممن أخذت عنه أيضا، حافظها ومدرسها ومفتيها، أبو موسى عمران بن موسى بن يوسف المشدالى. صهر شيخ المدرسين^(٤) أبى على ناصر الدين على ابنته، وكان قد فر من حصار

(١) نسبة إلى عروة، لعله عروة بن الزبير، فقد كان يطيل الصلاة ويكثر من الدعاء حتى كان يقول: إني لأسأل الله فى صلاتي كل شىء حتى الملح.

(٢) نفح الطيب ٢٠٣/٥.

(٣) نفح الطيب ج ٥ ص ٢٠٦.

(٤) فى الأصل: «التأخرين» والمثبت رواية المصنف فى نفح الطيب ٢٢٣/٥.

بجاية فنزل الجزائر، فبعث فيه أبو تاشفين، وأنزله من التقريب والإحسان بالمحل المكين، فدرس بتلمسان الحديث والفقه والأصول والنحو والمنطق والجدل^(١) والفرائض. وكان كثير الاتساع في الفقه والجدل، مديد الباع فيما سواهما مما ذكر^(٢).

سألته عن قول ابن الحاجب في السهو: «فإن أخال الإعراض، فبطل عمده» فقال: معناه: فإن أخال غيره أنه معرض، فحذف المفعول الأول لجوازه، وأقام المصدر مقام المفعولين كما يقوم مقامه ما في معناه من أن وأن. قال الله العظيم: ﴿الَمْ أَحْصِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا...﴾ (٢) ﴿العنكبوت﴾^(٣).

قلت: وأقوى من هذا، أن يكون المصدر هو المفعول الثاني، وحذف الثالث اختصارا لدلالة المعنى عليه. أى فإن أخال الإعراض كائنا، كما قالوا، خلت ذلك وقد أعربت الآية بالوجهين، وهذا - عندي أقرب^(٤).

ومن هذا الباب ما يكتب به القضاة من قولهم: أعلم باستقلاله فلان، أى أعلم فلان من يقف عليه بأن الرسم مستقل، فحذفوا الأول، وصاغوا ما بعده المصدر^(٥).

سئل عمران - وأنا عنده - عما صبغ من الثياب بالدم، فكانت حمرة منه، فقال: يغسل فإن لم يخرج شيء من ذلك في الماء. فهو طاهر، لأن

(١) هذا الصواب في نفح الطيب، والذي في المطبوع: «الجدول».

(٢) نفح الطيب ٢٢٣/٥.

(٣) نفح الطيب ج ٥ ص ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٤) نفح الطيب ٢٢٤/٥.

(٥) نفح الطيب ٢٢٤/٥.

المتعلق به على هذا التقدير ليس إلا لون النجاسة، وإذا عسر قلعه بالماء فهو عفو. وإلا لوجب غسله إلى أن لا يخرج منه شيء^(١).

قلت: فى البخارى: قال معمر: رأيت الزهرى يصلى فيما صبغ بالبول من ثياب اليمن - يعنى - والله تعالى أعلم - بالإرشالة، وتفسيره على ما ذكره عمران، وكان قد صاهر قاضى الجماعة أبا عبد الله بن هدية على ابنته، فلم تزل عنده إلى أن توفى عنها^(٢).

ومنهم مشكاة الأنوار، الذى يكاد زيتة يضىء ولو لم تمسه نار، الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن حكم الكنانى السلوى - رحمه الله، ورد تلمسان بعد العشرين، ثم لم يزل بها إلى أن قتل يوم دُخِلَتْ على بنى عبد الواد، وذلك فى الثامن والعشرين من شهر رمضان، من عام سبعة وثلاثين [وسبعمائة]^(٣).

قال لى الشيخ ابن مرزوق: ابتداءً أمر بنى عبد الواد بقتلهم لأبى الحسن السعيد، وكان أسمر لأم ولد تسمى العنبر، وختم بقتل أبى الحسن بن عثمان إياهم - وهو بصفته المذكورة حذوك النعل بالنعل، فسبحان من دقت حكمته فى كل شيء^(٤).

ولما وقف الرفيقان أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهرى، ومحمد بن عبد الرحمن بن الحكيم الرندى. فى رحلتها على قبر السعيد بعباد تلمسان، تناول ابن الحكيم فحمة، ثم نقش بها على جدار هنالك.

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٢٤.

(٢) نفح الطيب ج ٥ ص ٢٢٤.

(٣) نفح الطيب ج ٥ ص ٢٢٤ وما بين حاصرتين منه.

(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٢٤.

انظر فَفِيَّ إِلَيْكَ اليوم معتبر إن كنت ممن بعين القلب قد لحظا
بالأمس أدعى سعيدا-والورى خولى واليوم يدعى سعيدا من بى اعظا^(١)
قال ابن حكم: كان أول اتصالي بالأستاذ أبى عبد الله بن آجروم. أنى
دخلت عليه وقد حفظت بعض كتاب المفصل. فوجدت الطلبة يعربون بين
يديه هذا البيت.

عهدى به الحى الجميع وفيهم قبل التفرق ميسر وندام
وقد عمى عليهم خبر «عهدى» فقلت له: قد سدت الحال - وهى
الجملة بعده - مسده، فقال لى بعض الطلبة: وهل يكون هذا فى الجملة كما
كان فى قولك: «ضربى زيدا قائما»؟ فقلت له: نعم، قال رسول الله ﷺ:
أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد^(٢).

ذكر أبو زيد ابن الإمام يوما فى مجلسه، أنه سئل بالمشرق عن هاتين
الشرطيتين ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٣) ﴿[الأنفال]
فإنهما يستلزمان بحكم الإنتاج، ولو علم الله فيهم خيرا، لتولوا،
وهو محال. ثم أراد أن يرى ما عند الحاضرين فقال ابن حكم، قال الخونجى،
والإهمال بإطلاق لفظ لو وإن فى المتصلة، فهاتان القضيتان على هذا
مهملتان، والمهلة فى قوة الجزئية، ولا قياس على جزئيتين: فلما اجتمعت
ببجاية بأبى على حسن بن حسين، وأخبرته بهذا وبما أجاب به الزمخشري
وغيره مما يرجع إلى انتقاء تكرر الوسط، فقال لى: الجوابان^(٣) فى المعنى

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٢٤.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٢٥.

(٣) تحرف فى المطبوع إلى: «الجوابان» وصوابه من نفح الطيب.

سواء. لأن القياس على الجزئيتين، إنما امتنع لانتقاء أمر تكرر الوسط، فأخبرت بذلك شيخنا الأبلّى، فقال: إنما يقوم القياس على الوسط، ثم يشترط فيه بعد ذلك أن لا يكون من جزئيتين ولا سالبتين - إلى سائر ما يشترط، فقلت، ما المانع من كون هذه الشروط تفصيلا لمجمل ما يبنى عليه من الوسط وغيره، وإلا فلا مانع غير ما قاله ابن حسين، قال الأبلّى: وقد أجبنا بجواب السلوى، ثم رجعت إلى ما قاله الناس لوجوب كون مهملات القرآن كلية، لأن الشرطية لا تنتج جزئية، فقلت: هذا فيما يساق منها للحجة مثل ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا...﴾ (٢٢) [الأنبياء]. أما في مثل هذا فلا (١).

ولما ورد تلمسان الشيخ الأديب أبو الحسن بن فرحون - نزيل طيبة - على تربتها السلام - سأل ابن حكيم عن معنى هذين البيتين:

رأت قمر السماء فأذكرتنى ليالى وصلها (٢) بالرقمتين
كلانا ناظر قمرنا ولكن رأيت بعينها ورأت بعيني

ففكر ثم قال: لعل هذا الرجل كان ينظر إليها وهى تنظر إلى قمر السماء، فهى تنظر إلى القمر حقيقة، وهو لإفراط الاستحسان يرى أنها الحقيقة، فقد رأى بعينها، لأنها ناظرة الحقيقة، وأيضا فهو ينظر إلى قمر مجازا وهو لإفراط استحسانه لها، يرى أن قمر السماء هو المجاز، فقد رأته بعينه لأنها ناظرة المجاز (٣).

(١) نفح الطيب ٢٢٥/٥.

(٢) فى المطبوع: «وصلنا» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٣) نفح الطيب ٢٢٦/٥.

قلت: ومن هنا تعلم وجه الفاء في قوله: «فأذكرتني» لأنه لما صارت رؤيتها رؤيته، وصار القمر حقيقة إياها، كان قوله «رأت قمر السماء فأذكرتني» بمثابة قولك، أذكرتني فتأمله، فإن بعض من لا يفهم كلام الأستاذ حق الفهم ينشده وأذكرتني، فالفاء في البيت الأول مبنية على معنى البيت الثاني، لأنها مبنية عليه، وهذا النحو يسمى: الإيذان في علم البيان^(١).

ولما اجتمعنا بأبي الوليد بن هانيء - مقدمه علينا من غرناطة - سأل ابن حكم عن تكرار من في قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ...﴾ [الرعد]، دون ما بعده، فقال: لولا تكررها أولا، لتوهم التضاد بتوهم اتحاد الزمان، فارتفع بتكرر الموضوع، أما آخر، فقد تكرر الزمان، فارتفع توهم التضاد، فلم يحتاج إلى زائد على ذلك^(٢).

فقلت: فهلا اكتفى بسواء عن تكرار الموضوع، لأن التسوية لا تقع إلا بين أمرين وإنما الجواب عندى أنها تكررت أولا على الأصل لأنهما صنفان يستدعيها كل واحد منهما أن تقع عليه، ثم اختصرت ثانيا لفهم المراد من التفصيل بالأول مع أمن اللبس. وقد أجاب الزمخشري بغير هذين فانظره^(٣).

سألني ابن حكم المذكور عن نسب المجيب في هذا البيت:

ومهفهف ألا عطا فقلت له انتسب فأجاب ما قتل المحب حرام

(١) نفح الطيب ٢٢٦/٥.

(٢) نفح الطيب ٢٢٧/٥.

(٣) نفح الطيب ٢٢٧/٥.

ففكرت ثم قلت: أراه تميميا لإلغائه «ما» النافية، فاستحسانه منى لصغر سنى يومئذ^(١).

تذاكرت^(٢) يوما مع ابن حكم فى تكملة محمد بن محمد بن مالك لشرح التسهيل لأبيه، ففضلت عليه كلام أبيه. ونازعنى الأستاذ فقلت:

عهود من الآبا توارثها ألا بنا

فما رأيت بأسرع من أن قال:

بنوا مجدها لكن بنوهم لها أبنى

فبهت من العجب^(٣) وتوفى الشيخ ابن مالك سنة اثنتين وسبعين [وستمائة] وفيها ولد شيخنا عبد المهيمن الحضرمى، فقبل مات فيها إمام نحو، وولد إمام نحو^(٤).

سألت ابن حكم عن قول فخر الدين فى أول المحصل: «وعندى أن شيئا منها غير مكتسب - بمعنى لا شيء ولا واحد، هل له أصل فى العربية أو هو كما قيل من بقايا عجمته؟ فقال لى: بل له أصل، وقد حكى ابن مالك مثله عن العرب فلم يتفق أن استوقفه عليه، ثم لم أزل أستكشف كل من أظن أن لديه شيئا عنه فلم أجد من عنده أثارة منه حتى مر بى فى باب الأفعال الداخلة على المبتدأ والخبر الداخلى عليها، «كان» - من «شرح التسهيل» قوله: «فإن تقدم على الاستفهام أحد المفعولين» نحو: «علمت زيدا

(١) نفح الطيب ٢٢٧/٥.

(٢) فى المطبوع: «نظرت» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٣) فى المطبوع: «التعجب» والمثبت من نفح الطيب.

(٤) نفح الطيب ٢٢٧ وما بين حاصرتين منه.

أبو من هو» اختير نصبه، لأن الفعل مسلط عليه فلا مانع، ويجوز رفعه لأنه والذى بعد الاستفهام شيء واحد فى المعنى، فكأنه فى حيز الاستفهام، والاستفهام مشتمل عليه، وهو نظير قولهم «إن أحد إلا^(١)» يقول ذلك» وأحد هذا لا يقع إلا بعد نفى، ولكن لما كان هنا والضمير المرفوع بالقول شيئاً واحداً فى المعنى، تنزل منزلة واقع بعد نفى، فعلمت أنه نحا إلى هذا، لأن شيئاً هنا والضمير المرفوع بمكتسب المنفى فى المعنى شيء واحد، فكان شيئاً كأنه وقع بعد غير، أى بعد النفى^(٢).

سأل ابن فرحون ابن حكم: هل تجد فى التنزيل ست فاءات مرتبة ترتيبها فى هذا البيت:

رأى فحب فرام الوصل فامتنعت فسام صبرا فأعيا نيله فقضى
ففكر ثم قال: نعم ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ...﴾ [القلم] إلى آخرها، فمنعت له البناء فى «فتنادوا» فقال لابن فرحون: فهل عندك غيره؟ فقال: نعم، فقال لهم رسول الله - إلى آخر السورة [الآيات ١٣ - ١٥ من سورة الشمس]، فمنع له بناء الأخيرة لقراءة الواو، فقلت: امنع ولا تسند فيقال لك إن المعانى قد تختلف باختلاف الحروف، وإن كان السند لا يسمع الكلام عليه، وأكثر ما وجدت الفاء تنتهى فى كلامهم إلى هذا العدد سواء بهذا الشرط وبدونه، كقول نوح عليه السلام، ﴿... فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ...﴾ [يونس]، وكقول امرئ القيس:

غشيت ديار الحى بالبكرات

(١) فى الأصل: «لا» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ٢٢٨/٥.

البيتين^(١).

لا يقال: فالحب سابع لأننا نقول: إنه عطف على عاقل المجرد منها، ولعل حكمة الستة أنها أول الأعداد التامة، كما قيل في حكمة خلق السموات والأرض فيها. وشأن اللسان عجيب^(٢).

وقوله في هذا البيت: فحب لغة قليلة جرى عليها محبوب كثيرا حتى استغنى به عن محب، فلا تكاد تجده إلا في قول عنترة:

ولقد نزلت فلا تظني غيره منى بمنزلة المحب المكرم
ونظيره محسوس من حس^(٣)، والأكثر أحس ولا تكاد تجد محسا،
وهذا التوجيه أحسن^(٤) من قول القرافى فى شرح التنقيح إنهم أجروا
محسوسات مجرى معلومات لأن الحس أحد طرق^(٥) العلم^(٦).

سمعت ابن حكم يقول: كتب بعض أدباء فاس إلى صاحب له:

ابعث إلى بشىء مدار فاس عليه
وليس عندك شىء مما أشير إليه

(١) نفح الطيب ٢٢٨/٥ والبيتان هما قوله:

غشيت ديار الحى بالبكرات فعارمة فيرقه العبرات
الغول فحليت فأكناف منعج إلى عاقل فالجب ذى الأمرات

(٢) نفح الطيب ٢٢٩/٥.

(٣) تحرف فى المطبوع إلى: «حسن» وصوابه من نفح الطيب.

(٤) فى المطبوع: «أحس» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٥) فى المطبوع: «الطرق» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٦) نفح الطيب ٢٢٩/٥.

فبعث إليه ببطة من مرى^(١) - يشير بذلك إلى الرياء^(٢).

وحدث أن قاضيها أبا محمد عبد الله بن أحمد بن الملجوم، حضر وليمة، وكان كثير البلغم، فوضع بين يديه صهره أبو العباس بن الأشقر غضارا من اللون المطبوخ بالمرى لمناسبته لمزاجه، فخاف أن يكون قد عرض له بالرياء، وكان ابن الأشقر يذكر بالوقوع فى الناس، فناوله القاضى غضار المقروض، فاستحسن الحاضرون فطنته^(٣).

ومنهم عالم الصلحاء، وصالح العلماء، وجليس التنزيل، وحليف البكاء والعويل، أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد بن إبراهيم بن الناصر المجاصى، خطيب جامع القصر الجديد، وجامع خطتى التحديث والتجويد^(٤)، ويسميه أهل مكة البكاء، ولما قدم أبو الحسن على ابن موسى البحيرى، سأل عنه فقليل له: لو علم بك أذاك، فقال: أنا آتى من سمعت

(١) البطة: إناء كالقارورة يعمل على شكل بطة، والمرى - بتشديد الراء - أنواع من مستحضرات تتخذ فى صنع الأطعمة منها المرى النقيع والطيب ومرى الخبز ومرى الحوت. وبعض أنواعه يصنع من عصير العنب بالأفاويه دون خبز محرق، والعامّة تصنعه من العسل المحرق والخبز المحرق وغيرهما. ويقول دوزى: إنه مركب يصنع من الدقيق والملح والعسل والتمر وأشياء أخرى. ويقول ابن البيطار: إن نوعاً منه يعمل من السمك المالح واللحوم المالحّة، وينقل عن الجاحظ قوله: «المرى هو جوهر الطعام وروح البارد المستظرف والحر المستنظف...»

(انظر قاموس دوزى «مادة مرى» ومفردات ابن البيطار ١٤٩/٤ وكتاب الطيب ٨٢ ومواضع أخرى منه).

(٢) نفح الطيب ٢٢٩/٥.

(٣) نفح الطيب ٢٣٠/٥، وتحرف فى المطبوع: «... بن أحمد بن الملجوم» إلى: «... الملجوم».

(٤) فى الأصل: «التجديد» والمثبت رواية نفح الطيب.

سیدی أبا زید الهزمیری یقول له - لأول ما رآه ولم یکن یعرفه قبل ذلك -
مرحبا بالفتی الخاشع، أسمعنا من قراءتك الحسنة^(١).

دخلت علیه بالفقیه أبی عبد الله السطی فی أيام عید، فقدم لنا طعاما،
فقلت له: لو أكلت معنا، فرجونا بذلك ما یرفع من حدیث: من أكل مع
مغفور غفر له، فتبسم وقال لی: دخلت علی سیدی أبی عبد الله الفاسی
بالإسكندرية، فقدم طعاما، فسألناه عن هذا الحدیث، فقال لی: دخلت علی
شرف الدین الدمیاطی، فقدم لی طعاما فسألته عن هذا الحدیث، فقال: وقع
فی نفسی منه شیء، فرأیت النبی - ﷺ فی المنام، فسألته عنه، فقال لی: لم
أقله، وأرجو أن یكون كذلك^(٢).

وصافحته بمصافحة الشیخ أبا عبد الله زیان بمصافحته أبا سعید عثمان بن
عطية الصعیدی، بمصافحته أبا العباس أحمد المثلث، بمصافحته المعمر،
بمصافحته رسول الله - ﷺ^(٣).

وسمعته یحدث عن شیخه أبی محمد الدلاصی، أنه كان للملك العادل
مملوك اسمه محمد، فكان یخصه لدینه وعقله بالنداء باسمه، وإنما كان ینعق
بمالیکه: یا ساقی، یا طباح، یا مزین، فنادی به ذات یوم: یا فراش، فظن
ذلك لموجدة علیه، فلما لم یر أثر ذلك، وتصورت له به خلوة سألته عن
مخالفته لعادته معه، فقال: لا علیك كنت حینئذ جنبا، فکرت ذکر رسول
الله - ﷺ - علی تلك الحالة^(٤).

(١) نفح الطیب ٥ / ٢٣٠.

(٢) نفح الطیب ٥ / ٢٣٠.

(٣) نفح الطیب ٥ / ٢٣٠.

(٤) نفح الطیب ٥ / ٢٣١.

نقلت من خط المجاصى ثم قرأته عليه، فحدثنى قال: حدثنى القاضى أبو زكرياء يحيى بن محمد بن يحيى بن أبى بكر بن عصفور، قال: حدثنى جدى يحيى المذكور، أخبرنا محمد بن عبد الرحمن التجيبى المقرئ بتلمسان، حدثنا الحافظ أبو محمد - يعنى والله أعلم - عبد الحق الإشبلى. حدثنا أبو غالب أحمد بن الحسن المستعمل. حدثنا أبو الفتوح: عبد الغافر بن الحسين ابن أبى الحسن بن خلف الألعى، أخبرنا أبو نصر أحمد بن إسحاق النيسابورى، أملى علينا أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابونى، حدثنا محمد بن على بن الحسين العلوى، حدثنا عبد الله بن إسحاق اللغوى - وأنا سألته - حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدى، حدثنا عبد الله بن نافع، عن عيسى بن يونس، عن الأعمش، عن أبى وائل، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله - ﷺ: قال لى جبريل: ألا أعلمك الكلمات التى قالهن موسى حين انفلق البحر، قلت: بلى، قال: قل: اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وبك المستغاث، وأنت المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال ابن مسعود، ما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله - ﷺ، ثم تسلسل الحديث على ذلك كل أحد من رجاله - يقول: ما تركتهن منذ سمعتهن من فلان - لشيخه، وقد سمعت المجاصى يكررها كثيرا وما تركتهن منذ سمعتهن منه^(١).

وأنشدنى المجاصى وقال: أنشدنى نجم الدين الواسطى، وقال: أنشدنى شرف الدين الدمياطى وقال: أنشدنى تاج الدين الأرموى مؤلف «الحاصل» وقال: أنشدنى الإمام فخر الدين لنفسه^(٢):

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٢٣١.

(٢) نفح الطيب ج ٥ ص ٢٣٢.

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسوننا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم من رجال قد رأينا ودولة فبادوا جميعا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال فماتوا والجبال جبال
وتوفى المجاصى فى العشر الآخر من شهر ربيع الأول من عام أحد
وأربعين^(١).

ومنهـم الشيخ الشريف القاضى الرحلة المعمر، أبو على حسن بن يوسف بن يحيى الحسينى السبتي، أدرك أبا الحسين بن أبى الربيع وأبا القاسم العزفى، واختص بابن عبيدة وابن الشاط، ثم رحل إلى المشرق فلقى ابن دقيق العيد وحلبته، ثم قفل فاستوطن تلمسان - إلى أن مات فيها سنة أربع وخمسين أو ثلاث وخمسين وسبعمائة. قرأ علينا حديث الرحمة، وهو أول حديث سمعته منه. قال: حدثنا الحسن بن على بن عيسى بن الحسن اللخمى - وهو أول حديث سمعته منه. قال: حدثنا على بن المظفر بن القاسم الدمشقى - وهو أول حديث سمعته منه، قال: حدثنا أبو الفرج محمد بن عبد الرحمن بن أبى العز الواسطى - وهو أول حديث سمعته منه، قال: حدثنا أبو العز عبد المغيث بن زهير - وهو أول حديث سمعته منه، قال: حدثنا زاهر بن طاهر بن محمد الشحامى - وهو أول حديث سمعته منه.

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٢٣٢.

(ح) (١) قال الحسن بن علي: وحدثنا أيضا - عاليا - الحسن بن محمد ابن محمد البكري - وهو أول حديث سمعته منه، أخبرنا أبو الفتوح محمد ابن محمد بن محمد بن الجنيد الصوفي - وهو أول حديث سمعناه منه، حدثنا زاهر بن طاهر - وهو أول حديث سمعته منه، حدثنا أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي الفضائل عبد الوهاب بن صالح عرف بابن المعزم (٢) إمام جامع همذان بها - وهو أول حديث سمعته منه - حدثنا أبو منصور عبد الكريم بن محمد بن حامد المعروف بابن الخيام - وهو أول حديث سمعته منه، حدثنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك - وهو أول حديث سمعته منه حفظا، حدثنا أبو الطاهر محمد بن محمد بن مخمش الزيادي - وهو أول حديث سمعته منه، حدثنا أبو حامد أحمد بن محمد بن محمد بن يحيى بن هلال البزار - وهو أول حديث سمعته منه، حدثنا عبد الرحمن بن بشر بن الحكم - وهو أول حديث سمعته منه، حدثنا سفيان بن عيينة - وهو أول حديث سمعته منه، عن عمرو بن دينار، عن أبي قابوس مولى لعبد الله بن عمرو بن العاص، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ قال: الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء (٣).

(ح). وحدثني الشريف أيضا كذلك قال: حدثني السلفي كذلك بأسانيده المشهورة فيه. وهذا الحديث أخرجه الترمذي.

(١) جرت عادة علماء مصطلح الحديث - إذا كان للحديث إسنادان فأكثر. وجمعوا بين الأسانيد في متن واحد - أنهم إذا انتقلوا من إسناد إلى إسناد آخر، كتبوا بينهما حاء مفردة مهملة كذا (ح) اختصاراً من كلمة «تحويل».

(٢) في نفح الطيب: «المغرم».

(٣) نفح الطيب ٢٣٢/٥.

وقال حديث حسن صحيح . قال لى الشريف : قال لى القاضى أبو العباس الرندى ، لما قدم أبو العباس بن الغماز من بلنسية ، نزل بجاية ، فجلس بها فى الشهود مع عبد الحق بن ربيع ، فجاء عبد الحق يوما وعليه برنس أبيض وقد حسنت شارته وكملت هيئته ، فلما نظر إليه ابن الغماز أنشده :

لبس البرنس الفقيه فباهى وأرى^(١) أنه المليح فتأها
لو زليخا رآته حين تبدى لتمنته أن يكون فتأها^(٢)
وبه أن ابن الغماز جلس لارتقاب الهلال بجامع الزيتونة ، فنزل الشهود من المئذنة وأخبروا أنهم لم يهلّوه ، وجاء حفيد له صغير ، فأخبره أنه أهله ، فردهم معه فأراهم إياه ، فقال : ما أشبه الليلة بالبارحة ! وقع لنا مثل هذا مع أبى الربيع بن سالم ، فأنشدنا فيه :

توارى هلال الأفق عن أعين الورى وأرعى حجاب الغيم دون محياه
فلما تصدى لارتقاب شقيقه تبدى له دون الأنام فحياه^(٣)
وقال - رحمه الله : سمعت الشريف يقول : أول زجل عمل فى الدنيا :

بالله يا طير مدلل مربى وسط القففار
إياك نجدك لعاده ترمى حجيره فى دارى^(٤)
ومنهم قاضى جماعتها ، وكاتب خلافتها ، وخطيب جامعها ، أبو عبد الله محمد بن منصور بن على بن هدية القرشى ، من ولد عقبة بن عامر

(١) فى نفح الطيب : «ورأى» .

(٢) نفح الطيب ٢٣٣/٥ .

(٣) نفح الطيب ٢٣٤/٥ .

(٤) نفح الطيب ٢٣٤/٥ .

الفهرى، نزلها سلفه قديما، وخلفه بها إلى الآن، توفى فى أواسط سنة خمس وثلاثين وسبعمائه. وشهد جنازته سلطانها يومئذ أبو تاشفين، وولى ابنه أبا على منصورا - مكانه - يومئذ، ولما ثقل لسانه، دعا ابنه هذا فقال له: اكتب هذين البيتين، فإنى نظمتهما على هذه الحالة، فكتب:

إلهى مضت للعمر سبعون حجة جنيت بها لما جنيت الدواهيا
وعبدك قد أمسى عليل ذنوبه فجد لى برحمى منك نعم الدواهيا^(١)
ولما ورد الأديب أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المكوذى من المغرب، رفع إليه قصيدة أولها:

سرت والدجى لم يبق إلا يسيرها نسيم صبا يحيى القلوب مسيرها
وفيهما الأبيات العجائب التى سارت سير الأمثال، وهى قوله:
وفى الكلة الحمراء حمراء لو بدت لشكلى لولى ثكلها وثبورها
فما بسوى مثوى لها من سوى القنا خيام ومن بيض الصفاح ستورها
وما بسوى صدق الغرام أرومها ولا بسوى زور الخيال أزورها
فأحسن إليه، وكلم السلطان حتى أرسل جرايته عليه، وقد شهدت المكوذى وهذه القصيدة تقرأ عليه^(٢).

ومنهم القاضى أبو عبد الله محمد بن أحمد بن على بن أبى عمرو التميمى، أدرك ابن زيتون، وأخذ عن أبى الطاهر بن سرور وحلبته، وعنه

(١) نفح الطيب ٢٣٤/٥.

(٢) نفح الطيب ٢٣٥/٥.

أخذت شرح المعالم له، وولى القضاء بتلمسان مرات، فلم تستفزه الدنيا، ولا باع الفقر بالغنى^(١).

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور.

قاضي الجماعة - بعد ابن أبي عمرو، وكانت له رحلة إلى المشرق، لقي بها جلال الدين القزويني وحلبته، وتوفي بتونس في الوباء العام في حدود الخمسين وسبعمئة^(٢).

ومنهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن الحسن البروني،

قدم عليها من الأندلس، فأقام إلى أن مات. سمعته يقول: البقر العدوية، كالإبل المهملّة في الصحراء، لا يجوز أن تباع بالنظر إليها، لكن بعد أن تمسك ويستولى عليها^(٣).

ومنهم أبو عمران موسى بن يمويمن المصمودي، الشهير بالبخاري.

سمعت البوني يقول: كان الشيخ أبو عمران يدرس صحيح البخاري، ورفيق له يدرس صحيح مسلم، فكانا يعرفان بالبخاري ومسلم، فشهدا عند قاض، فطلب المشهود عليه الإعذار فيهما، فقال له أبو عمران: أتمكنه من الإعذار في الصحيحين؟ فضحك القاضي وأصلح بين الخصمين.

سألته عما ضربه ابن هدية عليه من إباحته الاستياك في رمضان بقشر الجوز، فقال لى: نعم ويبلغ ريقه. تأول - رحمه الله - أن الخصال المذكورة

(١) نفح الطيب ٢٣٥/٥.

(٢) نفح الطيب ٢٣٥/٥.

(٣) نفح الطيب ٢٣٦/٥.

فى السواك إنما تجمع فى الجوز، فكان يحمل كل ما روى فىه علىه، وهذا غلط فاحش، لأن العرب لا تكاد تعرفه، ونظر إلى ما فى البخارى من قوله بعد أن ذكر جواز السواك للصائم، ولا بأس أن يتلع ريقه - يعنى الصائم فى الجملة، فحملة على المستاك بالجوز.

وكان رحمه الله - قليل الإصابة فى الفتيا كثير المصيبات عليها^(١).

ومنههم: نادرة الأعصار، أبو عبد الله محمد بن يحيى بن على بن النجار.

قال لى العلامة الآبلى: ما قرأ أحد على حتى قلت له: لم يبقى عندى ما أقول لك غير ابن النجار.

سمعت ابن النجار يقول: مر عمل الموقتين على تساوى فضلتى ما بين المغرب والعشاء والفجر والشمس، فيؤذنون بالعشاء لذهاب ثمانى عشرة درجة، وبالفجر لبقائها، والجارى على مذهب مالك أن الشفق الحمرة، وأن تكون فضلة ما بين العشائين أقصر، لأن الحمرة ثانية الغوارب والطوالع، فتزيد فضلة الفجر بمقدار ما بين ابتداء طلوع الحمرة والشمس، فعرضت كلامه - هذا على المزوار أبى زيد عبد الرحمن بن سليمان اللجائى فصوبه^(٢).

وذكرت يوما حكاية ابن رشد الاتفاق فى الخمر إذا تخللت بنفسها أنها تطهر، واعترضته بما فى الإكمال عن ابن وضاح أنها لا تطهر. فقال لى: لا

(١) نفح الطيب ٢٣٦/٥.

(٢) نفح الطيب ٢٣٦/٥.

معتبر بقول ابن وضاح هذا، لأنه يلزم عليه تحريم الخل، لأن العنب لا يصير خلا حتى يكون خمرا. و- وفيه بحث^(١).

وذكرت يوما قول ابن الحاجب فيما يحرم من النساء بالقرابة، وهى أصوله وفصوله وفصول أول أصوله، وأول فصل من كل أصل وإن علا فقال: إن تركب لفظ التسمية العرفية من الطرفين حلت وإلا حرمت، فتأملته فوجدته كما قال، لأن أقسام هذا الضابط أربعة: التركب من الطرفين، كابن العم وابنة العم، مقابله: كالأب والبنت، التركب من قبل الرجل، كابنة الأخ والعم، مقابلة: كابن الأخت والخالة^(٢).

وأشدت يوما عنده على زيادة اللام:

باعد أمَّ العمر من أسيرها^(٣) - البيت.

فقال لى: وما يدريك أنه أراد العمر الذى أرادته المعرى فى قوله:

وعمر هند كأن الله صوره عمرو بن هند يعنى الناس تعنيئا
وأضاف اللام إليه - كما قالوا، أم الحليس، قلت: ولا يندفع هذا بثبوت
كون المعنية تكنى أم عمرو. لأن ذلك لا يمنع إرادة المعنى الآخر فتكون: أم
عمرو، وأم العمر^(٤).

قال ابن النجار: بعثت بهذه الأبيات من نظمى إلى القاضى أبى عبد الله
ابن هدية، فأخرج لغزها:

(١) نفح الطيب ٢٣٧/٥.

(٢) نفح الطيب ٢٣٧/٥.

(٣) فى المطبوع: «باعد العمر...» وهو غير صحيح عروضياً والبيت من الرجز، ونقاه:
«حراس أبواب على قصورها».

(٤) نفح الطيب ٢٣٨/٥.

إن حروف اسم من كلفت به خفت على كل ناطق بفم
سائغة سهلة مخارجها أجل بهذا تزداد فى الكلم
صحّفه ثم أقبلن مصحّفه فعّل ذكى مهذب فهم
واطلبه فى الشعر جد مطلبه تجده كالصبح لاح فى الظلم
فإن تأملت بت منه على علم وإلا فأنت عنه عمى
واللغز سلمان وموضعه «تأملت بت» وتوفى - رحمه الله - بتونس أيام
الوباء العام^(١).

ومنهم الأستاذ المقرئ الرواية الرحلة، أبو الحسن على بن أبى بكر بن
سبع^(٢) بن مزاحم المكناسى، ورد علينا من المشرق، فأقام معنا أعواما، ثم
رحل إلى فاس، فتوفى بها فى الوباء العام، جمعت عليه السبع، وقرأت عليه
البخارى والشاطبتين وغير ذلك، فأما البخارى، فحدثنى به قراءة على أحمد
ابن الشحنة الحجار فى سنة ثلاثين وسبعمائة، وكان الحجار قد سمعه على بن
الزبيدى فى سنة ثلاثين وستمائة، وهذا ما لا يعرف له نظير فى الإسلام، وقد
قال عبد الغنى الحافظ: لا نعرف فى الإسلام من وازاه غير عبد الله بن محمد
البغوى فى قدم السماع، فإنه توفى سنة سبع عشرة وثلاثمائة. قال ابن خلاد:
سمعناه يقول: حدثنا إسحاق بن إسماعيل الطالقانى سنة خمس وعشرين
ومائتين، وسمعه ابن الزبيدى على أبى الوقت بسنده قال لى ابن مزاحم: هذا
طريق كله سماع. أما الشاطبيتان، فحدثنى بهما قراءة عليه جميعهما، عن
بدر الدين بن جماعة بقراءتهما عليه، عن أبى الفضل هبة الله بن الأزرق

(١) نفح الطيب ٢٣٨/٥.

(٢) هذا المثبت من نفح الطيب، والذي فى المطبوع: «بن سبع».

بقراءتهما عليه عن المؤلف - كذلك، وحدثني بتسهيل الفوائد عن ابن جماعة عن المؤلف ابن مالك وغير ذلك^(١).

ومن ورد عليها لا يريد الإقامة بها، شيخى وبركتى وقودتى: أبو عبد الله محمد بن حسين القرشى الزبيدى التونسى.

حدثنى بالصحيحين قراءة لبعضهما ومناولة لجميعهما، عن أبى اليمن ابن عساكر، لقيه بمكة سنة إحدى وثمانين وستمائة بسنده المشهور. وحدثنى أيضا، أن أبا منصور العجمى حدثه بمحضر الشيخين، والده حسين وعمه حسن، وأثنى عليه دينا وفضلا - أنه أدخل ببعض بلاد المشرق على المعمر أدخله عليه بعض ولد ولده، فألقاه ملفوفا فى قطن، وسمع له دويا كدوى النحل، فقال له: ألقىيت رسول الله - ﷺ ورأيت؟ قال: نعم، قلت ليس فى هذا ما يستراب منه إلا الشيخ المعمر، فإننا لا نعرف حاله، فإن صح، فحديثنا عنه ثلاثى، وقد تركت سنة خمس وأربعين بمصر رجلا يسمى بعثمان، معه تسعون حديثا، يزعم أنه سمها من المعمر. وقد أخذت عنه وكتبت منه، فهذا ثنائى^(٢)، وأمر المعمر غريب، والنفس أميل إلى نفيه^(٣).

ومنهم إمام الحديث والعربية، وكاتب الخلافة العثمانية والعلوية، أبو محمد عبد المهيم بن محمد الحضرمى السبتي.

جمع فأوعى، واستوعب أكثر المشاهير وما سعى، فهو المقيم الطاعن، الضارب القاطن، سألنى عن الفرق بين علم الجنس واسم الجنس، فقلت له: زعم الخسروشاهى أنه ليس بالديار المصرية من يعرفه غيره، وأنا أقول: ليس

(١) نفح الطيب ٢٣٨/٥.

(٢) هذا المثبت من نفح الطيب، والذي فى المطبوع: «ثنائى».

(٣) نفح الطيب ٢٣٩/٥.

فى الدنيا عالم إلا وهو يعلمه غيره، لأنه حكم لفظى أوجب تقديره المحافظة على ضبط القوانين كعدل عمر ونحوه، فاستحسن ذلك، وكان ينكر إضافة الحول إلى الله عز وجل، فلا يجيز أن يقال بحول الله وقوته، قال: لأنه لم يرد إطلاقه، والمعنى يقتضى امتناعه، لأن الحول كالحيلة أو قريب منها، وتوفى بتونس أيام الوباء العام^(١).

ومنهم الفقيه المحقق الفرضى المدقق، أبو عبد الله محمد بن سليمان^(٢) ابن على السطى.

قرأت عليه كتاب الخوفى علما وعملا، قال لى فى قول ابن الحاجب: والثلث والثلث والسدس من أربعة وعشرين - هذا لا يصح، إذ لا يجتمع الثلث والثلث فى فريضة، وقد سبقه إلى هذا الوهم صاحب المقدمات، وسألت عنه ابن النجار فقال لى: إنما أراد المقام لأنه يجتمع مع الثلثين، والإنصاف أنه لا يحسن التعبير بما لا تصح إرادة نفسه عن غيره، فكان الوجه أن يقول: والثلثان أو ومقام الثلث ونحو ذلك، لأن الثلث إنما يدخل هنا تقديرا لا تحقيقا - كما فى الجواهر. وانظر باب المدبر من كتاب الخوفى، فإن فيه وافقة السبعة لعدد لا توافقه، فهو من باب الفرض، وعليه ينبغى أن يحمل كلام ابن الحاجب^(٣).

ومنهم: الأستاذ أبو عبد الله الرندى. والقاضى أبو عبد الله محمد بن على بن عبد الرازق الجزولى. والقاضى أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن ابن أبى يحيى - فى كثير من الخلق. فلنضرب عن هذا^(٤).

(١) نفع الطيب ٥/ ٢٤٠.

(٢) هذا المثلث من نفع الطيب، والذى فى المطبوع: «أبو عبد الله بن سليمان».

(٣) نفع الطيب ٥/ ٢٤٠.

(٤) نفع الطيب ٥/ ٢٤١.

ومن شيوخ الصلحاء الذين لقيت بها، خطيبها الشيخ أبو عثمان سعيد ابن إبراهيم بن علي الخياط.

أدرك أبا إسحاق الطيار، وقد صافحته - وأنا صغير، لأنه توفي سنة تسع وعشرين بمصافحته إياه بمصافحته الشيخ ابا تميم، بمصافحته أبا مدين، بمصافحته أبا الحسن بن حرزهم، بمصافحته ابن العربي، بمصافحته الغزالي، بمصافحته أبا المعالي، بمصافحته أبا طالب المكي، بمصافحته أبا محمد الجزيري، بمصافحته الجنيد، بمصافحته سريا، بمصافحته معروفًا، بمصافحته داود الطائي، بمصافحته حبيبا العجمي، بمصافحته الحسن البصري، بمصافحته علي بن أبي طالب، بمصافحته رسول الله ﷺ - (١).

ومنهم خطيبها المصقع، أبو عبد الله محمد بن علي بن الجمال.

أدرك محمد بن رشد البغدادي. صاحب الزهر والوتريات على حروف العجم، والمذهبة، وغيرها، حدثني عنه أنه تاب بين يديه لأول مجلس جلسه بتلمسان سبعون رجلا (٢).

ومنهم الشقيقان الحاجان الفاضلان، أبو عبد الله محمد وأبو العباس أحمد، ابنا ولي الله أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسى.

كساني محمد خرقة التصوف بيده كما كساه إياها الشيخ بلال بن عبد الله الحبشي، خادم الشيخ أبي مدين، كما كساه أبو مدين، قال محمد بن

(١) نفح الطيب ٢٤١/٥.

(٢) نفح الطيب ٢٤٢/٥.

مرزوق، وكان مولد بلال سنة تسع وخمسين وخمسمائة. وخدم أبا مدين -
نحو من خمسة عشر عاما - إلى أن توفي في عام تسعين وخمسمائة، ثم
عاش بعده أكثر من مائة سنة، ولبس أبو مدين من يد ابن حرزهم، ولبس ابن
حرزهم من يد ابن العربي. واتصل اللباس اتصال المصافحة^(١).

ومنهم أبو زيد عبد الرحمن^(٢) بن يعقوب بن على الصنهاجى.

المكتب، حدثنا عن قاضيها أبى زيد عبد الرحمن بن على الدكالى، أنه
اختصم عنده رجلان فى شاة ادعى أحدهما أنه أودعها الآخر، وادعى أنها
ضاعت منه، فأوجب اليمين على المودع [عنده] أنها ضاعت من غير تضييع.
فقال: كيف أضيع وقد شغلتنى حراستها عن الصلاة حتى خرج وقتها؟ فحكم
عليه بالغرم. ف قيل له فى ذلك، فقال: تأولت قول عمر، ومن ضيعها فهو لما
سواها أضيع^(٣).

ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد القرمونى.

مكتبى الأول، ووسيلتى إلى الله عز وجل، قرأ على الشيخين أبوى عبد
الله القصرى وابن حريث وحج حجات، وكان عقد بقلبه أنه كلما ملك مائة
دينار عيونا، سافر إلى الحج، وكان بصيرا بتعبير الرؤيا، فمن عجائب شأنه
فيه أنه كان فى سجن أبى يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فيمن كان
من أهل تلمسان أيام محاصرته لها، فرأى أبو جمعة بن على التلاسى
الجرائحى منهم كأنه قائم على سانية دائرة وجميع قواديسها يصب فى نقيير فى
وسطها، فجاء ليشرب، فلما اغترف الماء إذا فيه فرث ودم فأرسله، ثم اغترف

(١) نفح الطيب ٢٤٢/٥.

(٢) هذ الصواب من نفح الطيب، والذي فى المطبوع: «أبو زيد بن عبد الرحمن».

(٣) نفح الطيب ٢٤٢/٥، وما بين حاصرتين منه.

فإذا هو كذلك ثلاثا أو أكثر، فعدل عنه فرأى خصة ماء. وشرب منها، ثم استيقظ وهو [فى] ^(١) النهار. فأخبره فقال: إن صدقت رؤياك فنحن عن قليل خارجون عن هذا المكان. قال: كيف؟ قال: السانية الزمان، والنكير السلطان، وأنت جرائحى تدخل يديك فى جوفه، فينالها الفرث والدم ^(٢).

وهذا ما لا نحتاج معه، فلم يكن إلا ضحوة الغد، وإذا النداء عليه، فأخرج فوجد السلطان مطعونا بخنجر. فأدخل يده، فنالها الفرث والدم، فخاط جراحته ثم خرج فرأى خصة ماء، فغسل يديه وشرب، ثم لم يلبث السلطان أن توفى وسرحوا ^(٣).

وتعداد أهل هذه الصفة يكثر. فلنصفح عنهم ولنختم فصل من لقيته بتلمسان بذكر رجلين هما بقيد الحياة، أحدهما عالم الدنيا: والآخرة نادرتهما.

أما العالم فشيخنا ومعلمنا العلامة أبو عبد الله محمد إبراهيم بن أحمد العبدري الأبلق التلمسانى سمع جده لأمه أبا الحسين بن غلبون المرسى القاضى بتلمسان، وأخذ عن فقهاء أبي الحسين التنسى وابن الإمام، ورحل فى آخر المائة السابعة، فدخل مصر والشام والحجاز والعراق، ثم قفل إلى المغرب، فأقام بتلمسان مدة، ثم فر أيام ^(٤) أبى حمو موسى بن عثمان إلى المغرب.

حدثنى أنه لقى أبا العباس أحمد بن إبراهيم الخياط، شقيق شيخنا أبى عثمان المتقدم ذكره، فشكا له ما يتوقعه من شر أبى حمو، فقال له: عليك

(١) تكملة من نيل الابتهاج.

(٢) نفح الطيب ٢٤٣/٥.

(٣) نفح الطيب ٢٤٣/٥، والإحاطة ٢٠١/٢، ونيل الابتهاج، ج ٢/ ٨٠.

(٤) فى المطبوع: «أمام» والمثبت رواية النفح.

بالجبل، فلم يدر ما قال حتى تعرض له رجل من غمارة، فعرض عليه الهروب به، قال: فخفت أن يكون أبو حمو قد دسه على، فتنكرت له فقال لى: إنما أنا أسير بك على الجبل، فتذكرت قول أبى إسحاق، فواطأته وكان خلاصى على يده، ولقد وجدت العطش فى بعض مسيرى معه، حى غلظ لسانى، واضطربت ركبته فقلت لى، وإن جلست قتلتك لئلا أفتضح بك، فكنت أقوى نفسى، فمر على بالى فى تلك الحالة استسقاء عمر بالعباس وتوسله به. فوالله ما قلت شيئا حتى رفع لى غدير ماء. فأريته إياه، فشربنا ونهضنا^(١).

ولما دخل المغرب. أدرك أبا العباس ابن البناء. فأخذ عنه وشافه كثيرا من علمائه، قال لى: قلت لأبى الحسن الصغير: ما قولك فى المهدي؟ فقال: عالم سلطان. فقلت: قد أبنت^(٢) عن مرادى، ثم سكن جبال الموحدين، ثم رجع إلى فاس، فلما افتتحت تلمسان، لقيته بها، فأخذت عنه، فقال لى الآبلى، كنت يوما مع القاسم بن محمد الصنهاجى، فوردت عليه طومارة من قبل القاضى أبى الحجاج الطرطوشى فيها:

خيرات ما تحويه مبدولة ومطلبى^(٣) تصحيف مقلوبها
فقال لى: ما مطلبه؟ فقلت: نارنج^(٤).

دخل على الآبلى - وأنا عنده بتلمسان - الشيخ عبد الله الدباغ المالقى المتطبب، فأخبرنا أن أديبا استجدى وزيرا بهذا الشطر:

(١) نفح الطيب ٢٤٤/٥.

(٢) فى الأصل: «أنبأت» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٣) فى المطبوع: «ومطلب» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٤) نفح الطيب ٢٤٤/٥.

ثم حبيب^(١) قل ما ينصف

فأخذته فكتبته ثم قلبته وصحفته، فإذا هو قصبنا ملف شحى^(٢).

ومر الدباغ علينا يوما بفاس، فدعاه الشيخ فلباه، فقال: حدثنا بحديث اللطافة، فقال: نعم، حدثني أبو زكرياء بن السراج الكاتب بسجلماسة، أن أبا إسحاق التلمساني وصهره مالك بن المرحل، وكان ابن السراج قد لقيهما، اصطحبا في مسير، فأواهما الليل إلى مجشر، فسألا عن طالبه، فدلا فاستضافاه فأضافهما، فبسط قطيفة بيضاء، ثم عطف عليهما بخبز ولبن، وقال لهما: استعملا من هذه اللطافة حتى يحضر عشائكما، وانصرف فتحاورا في اسم اللطافة لأى شيء هو منهما حتى ناما، فلم يزع أبا إسحاق إلا مالك يوقظه ويقول: قد وجدت اللطافة، قال: كيف؟ قال: أبعدت في طلبها حتى وقعت بما لم يمر قط على سمع هذا البدوى، فضلا عن أن يراه، ثم رجعت القهقهري حتى وقعت على قول النابغة:

بمخضب رخص كأن بنانه عمن يكاد من اللطافة يعقد

فسنح لبالى أنه وجد اللطافة وعليها مكتوب بالخط الرقيق: اللين، فجعل إحدى النقطين للطاء، فصارت اللطافة اللطافة، واللين: اللبن، وإن كان صحف عمن بغنم، وظن أن يعقد جبن فقد قوى عنده الوهم، فقال أبو إسحاق: ما خرجت عن صوبه، فلما جاء سألاه، فأخبرهما أنها اللبن، واستشهد بالبيت كما قال مالك^(٣).

(١) هذا المثلث في نفح الطيب ٢٤٥/٥ ونيل الابتهاج ٩٧/٢ والذي في المطبوع: «طيب».

(٢) نفح الطيب ٢٤٥/٥.

(٣) نفح الطيب ٢٤٥/٥.

ولا تعجب من مالك، فقد ورد فاسا شيخنا أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلى - عرف بابن المسفر - رسولا عن صاحب بجاية، فزاره الطلبة فكان فيما حدثهم أنهم كانوا على زمان ناصر الدين يستشكلون كلاما وقع فى تفسير سورة الفاتحة من كتاب فخر الدين ويستشكله الشيخ معهم. وهذا نصه: ثبت فى بعض العلوم العقلية، أن المركب مثل البسيط فى الجنس، والبسيط مثل المركب فى الفصل، وأن الجنس أقوى من الفصل، فرجعوا به إلى الشيخ الآبلى، فتأمل له ثم قال: هذا كلام مصحف، وأصله أن المركب قبل البسيط فى الحس، والبسيط قبل المركب فى العقل، وأن الحس أقوى من العقل، وأخبروا ابن المسفر فلج. فقال لهم الشيخ: التمسوا النسخ، فوجدوه فى بعضها كما قال الشيخ: «والله يؤتى فضله من يشاء»^(١).

قال لى الآبلى: لما نزلت تازة، بت مع أبى الحسن بن برى وأبى عبد الله الترجالى، فاحتجت إلى النوم، وكهرت قطعهما عن الكلام. فاستكشفتها عن معنى هذا البيت للمعرى:

أقول لعبد الله لما سقاؤنا ونحن بوادى عبد شمس وهاشم
فجعلنا يفكران فيه، فنمت حتى أصبح ولم يجدها، فسألانى عنه،
فقلت: معناه أقول لعبد الله لما وهى سقاؤنا ونحن بوادى عبد الشمس شم لنا
برقا. قلت وفى جواز مثل هذا نظر^(٢).

سمعت الآبلى يقول: دخل قطب الدين الشيرازى والديبران على فضل

(١) نفح الطيب ٢٤٦/٥.

(٢) نفح الطيب ٢٤٦/٥.

الدين الخونجي ببلده - وقد تزيا بزى القونوية . فسأله أحدهما عن مسألة فأجابه، فتعايا عن الفهم . وقرب التقرير فتعايا، فقال الخونجي متمثلاً:

على نحت^(١) المعانى من معاذنها وما على لكم أن تفهم البقر فقال له: ضم التاء يا مولانا، فعرفهما فحملهما إلى بيته .

قلت: سمعت شمس الدين الأصبهاني بخانقاه قوصون^(٢) بمصر يقول: إن شيخه القطب توفي عام أحد عشر وسبعمئة، وله سبع وسبعون سنة وهذا يضعف هذه الحكاية - عندى^(٣) .

سمعت الآبلى يقول إن الخونجي ولى قضاء مصر بعد عز الدين ابن عبد السلام، فقدم شاهداً كان عز الدين أخره . فعذله فى ذلك . فقال: إن مولانا لم يذكر السبب الذى رفع يده من أجله، وهو الآن غير متمكن من ذكره^(٤) .

سمعت الشيخ الآبلى يحدث عن قطب الدين القسطلاني أنه ظهر فى المائة السابعة من المفاسد العظام ثلاث: مذهب ابن سبعين، وتملك الكفار للعراق . واستعمال الحشيشة^(٥) .

سمعت الآبلى يقول: قال أبو المطرف بن عميرة:

فضل الجمال على الكمال بوجهه فالحق لا يخفى على من وَسَّطَه
وبطرفه سقم وسحر قد أتى مستظهرا بهما على ما استنبطه

(١) فى الأصل: «جلب» والمثبت رواية نفح الطيب .

(٢) هذا الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «بخانقة قيسوم» .

(٣) نفح الطيب ٢٤٧/٥ .

(٤) نفح الطيب ٢٤٧/٥ .

(٥) نفح الطيب ٢٤٧/٥ .

عجبا له برهانه بشروطه معه فما مقصوده بالسفسطه

قال: فأجابه أبو القاسم بن الشاط فقال:

علم التباين فى النفوس وأنها منها مغلطة وغير مغلطة

فئة رأت وجه الدليل وفرقة أصغت إلى الشبهات فهى مورطه

فأراد جمعها معا فى ملكه هذى بمتجعة وذى بمغلطة

يعنى قولهم فى التام هو ما تحمل فى البرهان الفصل . وأخبار الآبلى

وَأَسْمَعَتْنِي مِنْهُ تَحْتَمِلُ كِتَابًا، فَلَنَقِفْ عَلَى هَذَا الْقَدْرِ مِنْهَا^(١).

وأما النادرة، فأبو عبد الله محمد بن أحمد بن شاطر الجمحى

المراكشى .

صحب أبا زيد الهزميرى كثيرا، وأبا عبد الله بن تَجَلَّات^(٢) وأبا العباس

ابن البناء، وأضرابه من المراكشيين ومن جاورهم، ورزق بصحبة الصالحين

حلاوة القول، فلا تكاد تجد من يستثقله وربما سئل عن نفسه فيقول: ولى

مفسود^(٣).

قلت له يوما: كيف أنت؟ فقال: محبوس فى الروح وقال: الليل

والنهار حرسيان، أحدهما أبيض، والآخر أسود، وقد أخذنا بمجامع الخلق

يجرانهم إلى يوم القيامة وإن مردنا إلى الله . وسمعتة يقول: المؤذنون يدعون

أولياء الله إلى بيته لعبادته، فلا يصددهم عن دعائهم ظلمة ولا شتاء ولا طين .

(١) نفح الطيب ٢٤٧/٥ .

(٢) هذا الصواب فى نفح الطيب، والذي فى المطبوع: «تيجلات» .

(٣) نفح الطيب ٢٤٨/٥ .

ويصرفونهم عن الاشتغال بما لم ين له، فيخرجونهم ويغلقون الأبواب دونهم^(١).

ووجدته ذات يوم في المسجد ذاكرة، فقلت: كيف أنت؟ فقال: ﴿...فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم] فهممت بالانصراف، فقال: أين تذهب من روضة من رياض الجنة، يقام بها على رأسك بهذا التاج^(٢) - وأشار إلى المنار مملوءا: الله أكبر^(٣).

مر ابن شاطر يوما على أبي العباس أحمد بن شعيب الكاتب - وهو جالس في جامع الجزيرة - طهره الله - وقد ذهبت به الفكرة، فصاح به، فلما رفع رأسه إليه، قال له: انظر إلى مركب عزرائيل هذا، وأشار إلى نعش هنالك - وقد رفع شرعه، ونودى عليه: الطلوع يا غزى^(٤).

وأكل يوما مع أبي القاسم عبد الله بن رضوان الكاتب جلعلانا، فقال لهم أبو القاسم: إن في الجلعلان لضربا^(٥) من طعم اللوز، فقال: ابن شاطر: وهل الجلعلان إلا لوزة دقة؟ وسئل عن العلة في نضارة الحداثة، فقال: قرب عهدنا بالله، قيل له: فمم تغير الشيوخ؟ فقال: من بعد العهد من الله وطول الصحبة مع الشياطين، فقليل له: فَبَخَرُ أفواههم؟ فقال: من كثرة ما تفل الشياطين فيها: وكان يسمى الصغير فأر المصطكى.

(١) نفح الطيب ٢٤٨/٥.

(٢) هذا الصواب من نفح الطيب، والذي في المطبوع: «الباجي».

(٣) نفح الطيب ٢٤٨/٥.

(٤) نفح الطيب ٢٤٨/٥.

(٥) في المطبوع: «لطعما» والمثبت رواية نفح الطيب.

قال لى ابن شاطر: لقيت عمى ميمونا المعروف بديير لقرب موته وقد اصفر وجهه . وتغيرت حاله فقلت ما بالك؟ .

فقال لى انسدت الزربطانة^(١) فطلع الخراء - يعنى العذرة . يشير إلى الاحتقان للطبيعة .

أنشدنى ابن شاطر قال أنشدنى أبو العباس بن البناء لنفسه .
قصدت إلى الوجازة فى كلامى لعلمى بالصواب فى الاختصار
فلم أحذر فهوما دون فهمى ولكن خفت إزراء الكبار
فشأن فحولة العلماء شأنى وشأن البسط تفهيم الصغار
وأخبار ابن الشاطر عندى تحتل كراسة، فلتنقع بهذا القدر^(٢) .

فصل: ولما دخلت تلمسان على بنى عبد الواد تهيأ لى السفر منها، فرحلت إلى بجاية، فلقيت فيها أعلاما درجوا، فأمست بعدهم خلاء بلقعا .
فمنهم: الفقيه أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلى، عرف بابن المسفر .
باحثه واستفدت منه . فسألنى عن اسم كتاب الجوهري . فقلت له: من الناس من يقول: الصحاح بالكسر . ومنهم من يفتح، فقال: إنما هو بالفتح بمعنى الصحيح كما ذكره فى باب صح، قلت: ويحتمل أن يكون مصدر صح، وكتب لبعض أصحابه رسالة صدرها بهذين البيتين:

(١) فى هامش المطبوع: «الزربطانة: مجمع المياه القذرة يسد بزرب وشبهه وفى فاس حى

يعرف اليوم بالزربطانة» .

(٢) نفح الطيب ٢٤٩/٥ .

وصلت صحيفتكم فهزت معطفى فكأنما أهدت كئوس القرقف
وكأنها نيل الأمانى لخائف أو وصل محبوب لصب مدنف^(١)
ومنهم قاضيها: أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبى يوسف يعقوب
الزواوى .

فقيه ابن فقيه، كان يقول: من عرف ابن الحاجب أقرأ به المدونة، قال:
وأنا أقرأ به المدونة^(٢) .

ومنهم أبو على حسين بن حسين، إمام المعقولات - بعد ناصر
الدين^(٣) .

ومنهم: خطيبها أبو العباس أحمد بن عمران، وكان قد ورد تلمسان،
وأورد بها على قول ابن الحاجب فى حد العلم: صفة توجب تميزا لا يحتمل
النقيض - الخاصة إلا أن يزداد فى الحد لمن قامت به، لأنها إنما توجب فيه
تميزا لا تميزا، وهذا حسن^(٤) .

ومنهم الشيخان أبو عزيز، وأبو موسى بن فرحان وغيرهم من أهل
عصرهم، ثم رحلت إلى تونس، فلقيت بها قاضى الجماعة وفقهها، أبا عبد
الله بن عبد السلام، فحضرت تدريسه، وأكثرت مباحثته، ولما نزلت بظاهر
تلقائى رجل من الطلبة، فسألنى عن هذه الآية: ﴿... وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ
رِسَالَتَهُ...﴾ [المائدة: ٦٧] فإن ظاهرها أن الجزاء هو الشرط - أى: وإن لم

(١) نفح الطيب ٢٤٩/٥ .

(٢) نفح الطيب ٢٥٠/٥ .

(٣) نفح الطيب ٢٥٠/٥ .

(٤) نفح الطيب ٢٥٠/٥ .

تبلغ، فما بلغت، وذلك غير مفيد، فقلت: بل هو مفيد - أى: وإن لم تبلغ فى المستقبل، لم ينفعك تبليغك فى الماضى، لارتباط أول الرسالة بآخرها، كالصلاة ونحوها، بدليل قصة يونس، فعبر بانتقاء ماهية التبليغ عند انتقاء المقصود منه، إذ كان إنما يطلب له ولا يعتبر بدونه، كقوله عليه السلام: لا صلاة إلا بطهور^(١).

ثم اجتمعت بابن عبد السلام بجامع بتونس، فسألته عن ذلك، فلم يزد على أن قال هذا مثل قوله عليه السلام، فمن كانت هجرته إلى الله - الحديث. وقد علمت ما قال الشيخ تقى الدين فيه. قلت: كلام تقى الدين لا يعطى الجواب عن الآية - فتأمل^(٢).

وقاضى المناكح أبا محمد الأجمى - وهو حافظ فقهاءها فى وقته، والفقهاء أبا عبد الله بن هارون، شارح ابن الحاجب فى الفقه والأصول، والخطيب أبا عبد الله بن الستار، وحضرت تدرسه بمدرسة المعروض. والعلامة أبا عبد الله بن الجياب الكاتب والفقهاء أبا عبد الله بن سلامة. والشيخ الصالح أبا الحسن المنتصر. وارث طريقة الشيخ أبى محمد المرجانى. آخر المذكورين بإفريقية^(٣).

ورأيت ابن الشيخ المرجانى فحدثنى أبو موسى بن الإمام - أنه أشبه به من الغراب بالغراب!^(٤).

(١) فى المطبوع: «قسطنطينية» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ٢٥٠ / ٥.

(٣) نفح الطيب ٢٥١ / ٥.

(٤) نفح الطيب ٢٥١ / ٥.

وسيدى أبا عبد الله الزبيدي المتقدم ذكره، وأوقفنى على خطأ فى كتاب الصحاح وذلك أنه زعم أن السالم جلدة ما بين العينين والأنف، قال: ومنه قول ابن عمر فى ابنه سالم - رضى الله عنه:

يديرونى عن سالم وأديرهم وجلدة بين العين والأنف سالم قال: وهذا أراد عبد الملك - حيث كتب إلى الحجاج: أنت منى كسالم، وهذا خطأ فاحش، وكان يلزمه أن يسميها بالعمارة أيضا لقوله - عليه الصلاة والسلام: عمارة جلدة ما بين عيني وأنفى، وإنما المراد بمثل هذا القرب والتحميد^(١).

ولقيت بتونس غير واحد من العلماء والصلحاء يطول ذكرهم، ثم قفلى إلى المغرب يسايرنى رجل من أهل قسنطينة^(٢) يعرف بمنصور الحلبي، فما لقيت رجلا أكثر أخبارا ولا أطرف نوادر منه، فمما حفظته من حديثه أن رجلا من الأدباء، مر برجل من الغرباء، وقد قام بين ستة أطفال، جعل ثلاثة عن يمينه، وثلاثة عن شماله، وأخذ ينشد:

ما كنت أحسب أن أبقي كذا أبدا أعيش والدهر فى أطرافه حتف ساس بستة أطفال توسطهم شخصى كأحرف ساس وسطها ألف قال: فتقدمت إليه وقلت: وأين تعريقة السين؟ فقال: طالب ورب الكعبة، ثم قال للآخر من جهة يمينه: قم فقام يجر رجله كأنه مبطول، فقال: هذا تمام تعريقة السين^(٣).

(١) نفح الطيب ٢٥١/٥.

(٢) فى المطبوع: «القسنطينية» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٣) نفح الطيب ٢٥٢/٥.

ثم رحلت^(١) من تلمسان إلى المغرب، فلقيت بفاس الشيخ الفقيه الحاج أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحيم اليزناسنى والشيخ الفقيه أبا محمد عبد المؤمن الجاناتى، والشيخ الفقيه الصالح: أبا زرهون عبد العزيز بن محمد القيروانى، والفقيه أبا الضياء مصباح بن عبد الله الياصوتى وكان حافظ وقته، والفقيه أبا عبد الله بن عبد الكريم، وشيخ الشيوخ أبا زيد عبد الرحمن بن عمران الجزولى، والأستاذ أبا العباس المكناسى، وكنت لقيت الأستاذ أبا العباس ابن حزب الله، والأستاذ أبا عبد الله محمد بن القصار بتلمسان، ولقيت غير هؤلاء ممن يكثر عددهم^(٢).

وكنت لقيت بتازى الفقيه أبا عبد الله بن عطية، والأستاذ أبا عبد الله المجاصى. والأستاذ أبا الحسين الجيار^(٣). وغيرهم.

ثم بلغت بالرحلة إلى أغمات، ثم وصلت إلى سبتة، فاستوعبت بلاد المغرب، ولقيت بكل بلد من لآبد من لقاءه من علمائه وصلحائه، ثم قفلى إلى تلمسان فأقامت بها ما شاء الله، ثم أعملت الرحلة إلى الحجاز، فلقيت بمصر الأستاذ أثير الدين أبا حيان الغرناطى، رويت عنه واستفدت منه، وشمس الدين الأصبهانى الآخر، وشمس الدين بن عدلان، وقرأ على بعض شرحه لكتاب المازنى، وناولنى إياه. وشمس الدين بن اللبان آخر المذكورين بها، والشيخ الصالح أبا محمد المنوفى فقيه المالكية بها، وتاج الدين التبريزى الأصبم، وغيرهم ممن يطول ذكرهم^(٤)، ثم حججت، فلقيت بمكة إمام الوقت^(٥)

(١) فى المطبوع: «دخلت» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ٢٥٢/٥.

(٣) هذا الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «أبا الحسن الجبار».

(٤) نفح الطيب ٢٥٣/٥.

(٥) هذا الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «أبا الموقف».

أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن التوزري المعروف بخليل، وسألته يوم النحر حين وقفت بالمشعر الحرام عن بطن محسّر لأحرك فيه الجمل، فقال لى: تمالأ الناس على ترك هذه السنة حتى نسى بتركها محلها، والأقرب أنه هذا - وأشار إلى ما يلي الجابية التى على يسار المار من المشعر إلى منى من الطريق من أول ما يحاذيها إلى أن يأخذ صاعدا إلى منى، وما رأيت أعلم بالمناسك منه، والإمام أبا العباس رضى الدين الشافعى، وغير واحد من الزائرين والمجاورين وأهل البلد. وبالمدينة - أعجوبة الدنيا أبا محمد عبد الوهاب الجبرتي وغيره^(١).

ثم أخذت على الشام، فلقيت بدمشق شمس الدين بن قيم الجوزية - صاحب الفقيه ابن تيمية، وصدر الدين الغمارى المالكى، وأبا القاسم ابن محمد اليماني الشافعى وغيرهم، وبيت المقدس الأستاذ أبا عبد الله ابن مثبت، والقاضى شمس الدين بن سالم، والفقيه المذكر أبا عبد الله ابن عثمان وغيرهم^(٢).

ثم رجعت إلى المغرب فدخلت سجلماسة ودرعة، ثم قطعت إلى الأندلس فدخلت الجبل وأصطبونة ومربلة ومالقة وبلش والحامة، وانتهت بى الرحلة إلى غرناطة، وفى علم الله ما لا أعلم، وهو المسئول أن يحملنا على الصراط الأقوم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم - انتهى ما قصدناه من رحلة أشهر أسلافنا الإمام القاضى أبى عبد الله المقرئ - رحمه الله - ذكرته بطولة لما فيه من الفائدة^(٣).

(١) نفح الطيب ٢٥٣/٥.

(٢) نفح الطيب ٢٥٤/٥.

(٣) نفح الطيب ٢٥٤/٥.

وقد أَلَمَّ بذكر هذا الشيخ المَقَرِّي - رحمه الله تعالى - العلامة ولى الدين بن خلدون^(١) - رحمه الله - فى تاريخه الكبير، وقال فيه إنه كبير العلماء بالمغرب، وذلك عندما عرف بنفسه آخر التاريخ، ونص محل الحاجة منه: ولما رحلت من تونس منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين، أقمنا فى البحر نحوا من أربعين ليلة، [ثم] وافينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر ولعشر ليال من جلوس الملك الظاهر - على التخت، واقتعاد كرسى الملك دون أهله بنى قلاوون، وكنا على ترقب ذلك لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموه لذلك وتمهيده له، وأقمت بالإسكندرية شهرا لتهىئ أسباب الحج، ولم يقدر عامئذ، فانتقلت إلى القاهرة من أول ذى القعدة، فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسى الملوك، تاج القصور والأواوين فى أوجه، وتزهو الخوانق والمدارس بأفاقه، وتضئ البدور والكواكب من عليائه، وقد امتلأ بساط بحر النيل نهر الجنة، ومدفع مياه السماء، يسقيهم النهل والعلل بسيحه، ويجبى إليهم الثمرات والخيرات بثجه، ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة. وأسواقها تزخر بالنعم، وما زلنا نحدث عن هذه البلدة وبعد مداه فى العمران واتساع الأحوال، وقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا بفاس، وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقرئ، فقلت له: كيف كانت القاهرة؟ فقال: من لم يرها لم يعرف عز الإسلام، فسألت شيخنا أبا العباس ابن إدريس كبير العلماء ببجاية، فقال: كأئما انطلق أهله من الحساب - يشير إلى كثرة أئمه وأئمتهم العواقب. وحضرت صاحبنا قاضى العسكر بفاس، الفقيه الكاتب أبا القاسم البرجى بمجلس السلطان أبى عنان - منصرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة

(١) نقله المؤلف بنصه فى نفح الطيب ج ٥ ص ٢٥٤ وما بين الحاصرتين منه .

خمس وخمسين ، وسأله عن القاهرة فقال : أقول فى العبارة عنها على سبيل
الاختصار - الذى يتخيله الإنسان ، إنما يراه دون الصورة التى يتخيلها ، لاتساع
الخيال عن كل محسوس ، إلا القاهرة ، فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها ،
فأعجب السلطان والحاضرون بذلك انتهى .

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ،
والحمد لله رب العالمين .

٨ - روضة النيلوفر، فى ثناء الناس عليه

وذكر بعض مناقبه التى هى أذكى من المسك الأذفر

أقول: لا سبيل إلى حصر ثناء الناس على هذا الإمام. ولكن لابد من الإلماع بالنزر اليسير والإلمام.

قال القاضى أبو البركات بن الحاج البليقى - رحمه الله: لما قدم أبو الفضل عياض على قرطبة، ولقى أبا الوليد بن رشد. ورأى نبهه وفضل ذكائه قال: عجباً لرجل ينشأ فى البلاد البحرية على أكل السمك من أين يكون له هذا النبل والذكاء، قال: فبلغ كلامه القاضى أبا الفضل فقال: والله ما أكلت سمكاً منذ عقلت. انتهى.

قال بعض الأشياخ: يريد - والله أعلم - منذ عقل أضرار السمك بالحفظ وتبليده للذهن - والله أعلم.

وهكذا ذكر غير واحد. وسمعت فى بعض المجالس العلمية ما فيه بعض مخالفته لهذا، وهو أن ابن رشد كتب إلى القاضى عياض، عجباً - ولم يزد على هذه اللفظة شيئاً. فأجابه القاضى عياض بقوله: والله قط - ولم يزد فلم يفهم الناس، فسألوا ابن رشد فقال: أردت بقولى عجباً: عجباً لرجل ينشأ فى البلاد البحرية إلى آخره. وأراد أبو الفضل عياض بقوله: والله قط - أنه لم يأكله قط. غير أنى لم أر ذلك على هذا الوجه منصوصاً. وإنما هو شىء سمعته.

وأما الوجه الأول. فذكره ابن خاتمة وأبو البركات وغير واحد - والله أعلم.

وقال ولده: أخبرني ابن عمى الزاهد، أن القاضى أبا عبد الله بن حمدين كان يقول له - وقت رحلته إليه - وحقى يا أبا الفضل إن كنت تركت فى المغرب مثلك! وقال: وأخبرني أن أبا الحسين بن سراج قال له - وقد أراد الرحلة إلى بعض الأشياخ - لهو أحوج إليك منك إليه. وقال إن الفقيه أبا محمد بن أبى جعفر قال له: ما وصل إلينا من المغرب مثل عياض. قال ابن الخطيب - رحمه الله - ومثل هذا كثير - يعنى ثناء الأعلام على القاضى عياض - رحمه الله.

وحكى غير واحد منهم: ابن جابر الوادى آشى - أن القاضى أبا الفضل. لما ألف كتاب الشفا. أوقف عليه شيخه الإمام الحافظ أبا بكر بن العربى - رحمهما الله تعالى، فقال له: بارك الله فيك يا أبا الفضل، واستحسنه جدا! وأثنى عليه الناس سواه، وما أحسن قول الإمام أبى عمرو الملقى - رحمه الله يمدح القاضى أبا الفضل عياضا.

ظلموا عياضا وهو يحلم عنهم والظلم بين العالمين قديم جعلوا مكان الرء عينا فى اسمه كى يكتموه وإنه معلوم لولاه ما فاحت أباطح سبته والروض حول فنائها معدوم قلت: تذكرت هنا من هذا المعنى، ما كتب إلى به صاحبنا الكاتب البليغ، جام أشتات الآداب، سيدى محمد المكلاى فى شأن هذا الكتاب الموسم بـ «أزهار الرياض فى أخبار عياض» ونصه:

أتى برياض فى عياض وردھا مظالم كانت قبل معضلة الداء وفاضت بنيل العلم منه أصابع فلا تنكرن نبع الأصابع بالماء

خليلي هذى معجزات لأحمد فلا تعجبين إن رد عينا إلى الرء
ووصل هذه الأبيات بنثر نصه: تأملت ما سطره سيدنا - لا زال قلمه
فرعا يشمل بظله، ويتصرف فى ثناء الثناء بمعرفته وعدله - فرأيت الكواكب
الوقادة تهاوت بهذا الرياض، وسالت به المجرة نهرا فراقت منها الخلجان
والحياض، فسجد لك الكلام واقترب، وباعيتك رعايا المعانى منشدة " فسمعا
لأمر أمير العرب «والسلام» انتهى .

ولاخفاء أنه أشار بالبیت الأول إلى معنى أبيات الملقى الثلاثة، ثم أتى
فى البيت الثانى والثالث بالعجب العجائب حسبما يدركه من له أدنى تعلق
بالبلاغة، وما رأيت ولا سمعت قط بمثل هذا الاتفاق الذى اتفق له فى هذين
البيتين، لا سيما قوله: إن رد عينا إلى الرء، على أن مثل هذا ليس فيه إلا
ترفيه قدر النبى - ﷺ، والإشارة إلى بعض معجزاته الشهيرة على طريق
التلميح، لا كما توهمه بعض الأعمار مما لا يليق ذكره - والأعمال بالنيات .

وللفقيه الأديب الماهر، أبى محمد محارب بن محمد بن محارب الوادى
أشى يمدح القاضى عياضا أثناء مقامه من إنشائه:

غدا سلس القياد فما يراض	وعم جميع لمته البياض
وأضحى القلب لا تصيبه هند	ولا سلمى ولا الحقد المراض
ولا يشجعه طيب نسيم نجد	ولا تسليه بالزهر الرياض
وأن غنى الحمام بغصن أيك	فمن عض الزمان به عضاض
وقائله: أتكرع فى ثماد	وقد لاحت لرائدها الحياض
إلى كم ذا تقول لكل خطب	مقالة من ألم بها المخاض

وتنقبض انقباض العى حتى أضربك السكون والانقباض
ووجد بنى عياض بالمعالى مدى الدنيا حديث مستفاض
إذا قصدوا أثاروا الجود بحرا وسالوا بالمكارم ثم فاضوا
فقلت لها: ومن منهم عياذى فقالت: ذاك سيدهم عياض
إمام زانه علم وحلم له بالخطه العليا انتهاض
يقارض من أساء بحسن صبر وأمر الدين والدنيا قراض
ففى الآداب جدول ماء مزن وفى الآراء بحر لا يخاض
ويبرم ما يروم فليس يخشى على أمر إن أبرمه انتقاض
يهيم بكل معلوه وفضل كما قد هام بالعليا مضاض
ومن تعلق حبال بنى عياض يده فلا يضام ولا يهاض
وإذا تتبع هذا الباب، وقفت دون بلوغ مداه الألباب.

وأما مناقب الإمام أبى الفضل عياض - رحمه الله - فكثيرة، وكلها دال على ما له فى الرتبة الدينية من المزية الأثيرة، فمن ذلك ما حدث به المشيخة عن بعض الصالحين. قال: رأيت القاضى أبا الفضل - بعد موته فى المنام - وهو فى قصر عظيم جالس على سرير قوائمه من ذهب. قال: فكان يسألنى عن مسألة. فأقول له: يا سيدى، ذكر فيها فى كتابك الموسوم بـ «الشفاء» كيت وكيت. قال: فكان يقول لى: أعندك ذلك الكتاب؟ فأقول له: نعم، فيقول لى: شد يدك عليه، فبه نفعنى الله وأعطانى ما تراه.

وحدث بعضهم قال: رأيت القاضى أبا الفضل فى النوم إلى جانبه رجل

طيب الرائحة، جميل الصورة، حسن الثياب - كصفة النبي ﷺ، قال
الرائي: فكنت أقصد إلى سيدى عياض فأسلم عليه، فكان يقول لى: سلم
على هذا فأقول له: من هذا؟ فيقول لى: هذا هو الذى نفعنى الله به.

نقلت هاتين المنقبتين من خط الشيخ الإمام أبى عبد الله سيدى محمد
ابن سعد التلمسانى رحمه الله، وأظن أنه نقل ذلك عن الإمام الرحلة أبى
عبد الله بن رشيد الفهرى - والله أعلم.

ومن مناقب عياض، ما رأيت بخط ابن سعد التلمسانى المذكور،
ونصه: حدثوا عن عياض أنه لما توفى والده - وكان من عباد الله الصالحين.
وخيار أهل العلم - ترك موروثا عنه سبعة عشر ألفا من الذهب، فتزده عنها
القاضى أبو الفضل، وتركها لأخيه - مع علمه بطيب مكسب والده،
ونزاهته. انتهى.

ومن مناقبه - رحمه الله - ما ذكره السيد الفقيه أبو الحسن الوضاحى -
رحمه الله فى كتابه - أن أحد الملوك رُئى فى منامه - بعد موته فى القيامة،
والنار تسوق الناس إلى المحشر، وهو فى حالة حسنة، وثياب حسان، يقول
الرائي: لا أقدر أن أصف حسن ثيابه، فكلما همت النار أن تلحقه أو تقرب
إليه، مد إليها يده، فترجع النار عنه مسيرة خمسمائة عام، فقلت له: ما هذا؟
فقال: كنت فى الدنيا قد كتبت الشفا لعياض وحبست عليه، وكسوت عليه
شرين كسوة فى كل سنة كسوة للقارئ. فلما وقفت بين يدى ربى، أمر بى
إلى النار، فأنا كلما همت النار بى مددت إليها يدى، فترجع النار - كما ترى
- عنى، وكسانى بكل كسوة عشرين ألف حلة من حلل الجنة، فقلت له: وما
تنتظر؟ فقال: وهل تكون فى النار ثياب الجنة؟ قلت: فادخل الجنة، قال:

الرسول - ﷺ - يشفع لى ويجازى عنى أصحاب المظالم والحقوق التى وجبت على للناس، فحيثئذ أدخل الجنة - لأنه حرام على أحد أن يدخل الجنة ولاحد عليه مظلمة حتى يشفع فيها - انتهى. من خط بعض الأعلام من تلاميذه الشيخ ابن غازى - رحمه الله.

وحكى أن بعض الملوك كان مسرفا على نفسه فى اللهو وما لا يرضى الله، فرفعت إليه رقعة فيها مكتوب: «حتى متى وإلى متى من هذا اللهو - والموت يطلبك؟» فأعرض عن ذلك مدة، ثم رجع وندم، وشاور بعض خواصه فى وجه الخلاص، فدل على بعض صلحاء وقته، فلما شكا إليه، قال له: ما أرى أفضل من خدمة الرسول - ﷺ، فقال له: وبأى وسيلة أتقرب إليه - وأنا بعيد من طريقته؟ فقال له: بكتاب الشفا للقاضى عياض، ومن هناك يقع الصلح بينك وبين الرسول - ﷺ، فمن ذلك اشتغل بنسخه والعطاء عليه، وكان يقرأه دائما، ورتب فى مجلسه قارئاً له، فظهرت عليه آثار القبول والمحبة شيئاً بعد شىء فى باطنه، واستنار من فيض حبيبته وشفيعه، وكبر شأن ملكه، وهادته الملوك بحسن نيته - إذ الأعمال بالنيات، ورأى الرسول - ﷺ - فى المنام، وأخبره بأمر من الغيب، وأمره بأشياء امثلها، وكان يقول: ذلك كله من بركة الشفا لعياض، نقلته ملخصاً من خط من ذكر. ونقلت من خطه أيضاً - مانصه: وقد تكرر السماع من علماء فاس - ولا سيما من السيد القدوة أبى عبد الله بن غازى - رحمهم الله - أنهم قالوا: رأى بعض صلحاء فاس - نفع الله بهم - فى المنام - السلطان أبا عنان وهو بحالة حسنة وثياب حسان، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لى وأدخلنى الجنة، فقال له: وبم ذلك؟ قال: بتحيسى على قراءة الشفا للقاضى

عياض بمساجد فاس، غفر الله لى وضمن عنى الحقوق، وهنا رجاء عظيم،
وذلك قليل فى حق المصطفى - ﷺ - انتهى .

قلت : رأيت بخط الفقيه القاضى ، الكاتب الرحال : أبى إسحاق إبراهيم
ابن الحاج النميرى - رحمه الله - فى تاريخ له بعد الكلام - ما نصه : ثم
ولى بعده ابنه المتوكل على الله أبو عنان - وهو الذى تميز بأمر المؤمنين من
بنى مرين - وحده ، وتلقب المتوكل ، وهو الجامع لكمالات الملوك والمنفرد بما
لم ينفرد به أحد منهم ، وكان محبا فى العلم وأهله ، يحصل المسائل العلمية ،
ويطالع الكتب ليله أجمع ، لم تهزم له قط راية ، وخلد آثارا عظيمة ، وبنى
بكل بلدة من بلاده - زاوية لإطعام الطعام ، ولم يكن له قصد إلا فى تحصيل
الأجور ، واكتساب المحامد والمعالي ، ورئى فى النوم فليل له : ما فعل الله
بك؟ فقال : غفر لى وأدخلنى الجنة ، فليل له : بصدقائك؟ قال : لا ، رجع كل
ذلك إلى أربابه ، وإنما نفعتى قراءة سورة الأنعام فى كل ليلة ، ورآه بعضهم
أيضا فقال له : كيف حالك؟ فقال : أنا فى أتم النعم ، وأكمل الخيرات بمحبتى
فى آل رسول الله - ﷺ - انتهى .

وقد يجمع بين هذه الأشياء بأن جميعها حصلت به المغفرة - وفضل الله
واسع ، نسأله - سبحانه - أن يمن علينا بالرضوان ، ويقينا فى الدارين مسالك
الذل والهوان ، بجاه سيدنا محمد - ﷺ .

ومن فضائل الشفا ما وقفت عليه لبعض أعلام المتأخرين من أهل فاس
فى كتاب له يخاطب به السلطان الوطاسى . ونص محل الحاجة منه ، ومن
فضائل الشفا ، مما اتفق فى زمننا هذا - وهو ما أبرزه الله فى وجهتك
العجيبة ، وإيالتك السعيدة - فأصبحت النفوس منشركة يوم الخصلة المأثورة ،

وغنيمة المعمورة وذلك أن السيد الفقيه، المبارك الصالح، سيدى عبد العزيز اللمطى رحمه الله ورضى عنه رأى فى منامه فى عام عشرين من هذ القرن، كأن دخل القرويين، فوجد فى وسط الجامع جمعا من الناس - وهم يطلبون الله - قال: وإذا برجل داخل على الباب الشرقى المدرج وبيده مصباح، فلما دخل واجتمع مع الناس، صار يقلع حصر المسجد قال: وإذا برجل داخل على الباب المذكور لوجهه نور، أضاء منه المسجد على برنس أبيض، فقال قائل للناس: هذا رسول الله - ﷺ - قد جاء فأتى الناس للقائه، فسلموا عليه، فدخل حتى أتى الصف الذى فيه الكرسى الذى أنا أقرأ عليه الشفاء ثم جاء إلى ناحية الكرسى، حتى وصل إليه، قال سيدى عبد العزيز - رحمه الله - وأنا على الكرسى أقول: قال الشيخ الفقيه القاضى عياض، قال الرسول عليه - الصلاة والسلام - نعم، أحسن عياض، أحسن عياض، أحسن عياض! ثم جلس مع الناس فى المجلس، فلما فرغت من القراءة، شرعت فى الدعاء، ونصب الرسول - ﷺ - يديه، فلما فرغت - يقول سيدى عبد العزيز - أتيت رسول الله - ﷺ - وقبلت يديه، وجعل يده الكريمة على كتفى، ثم قال الرسول - ﷺ - لسيدى عبد العزيز: لم أنت تكره هذا القارئ؟ ألم تعلم أنه يحبنى ويكثر من الصلاة على؟ قال: قلت: أنا تائب لله، قال: قل: أستغفر الله. فقلت: أستغفر الله، قال: قلت: يا رسول الله، أما ترى ما نحن فيه فى هذا الغرب من الغفلة؟ قال: قل لهذا المحب القارئ يقرأ الشفا فى مقام هذا الشيخ أربعين أربعاء، ولا بد من النصر بإثر ذلك، قلت: ومن هذا الشيخ؟ قال: أبو جيدة، ثم قال أشياء أخرى، قال سيدى عبد العزيز للقارئ: أحمد الله - تعالى - أن خصك الرسول - ﷺ - بقراءة أوصافه، فشرعت فى القراءة فى مقام الولى المذكور، فلما كان آخر أربعاء

منها - وأنت يا عين الزمان أعطاك الله النصر والتمكن والأمان بالناس على المعمورة، فكانت هزيمة الروم يوم الأحد، فكان بين التمام والنصر يوم الخميس والجمعة والسبت وصدق الله قول سيدى عبد العزيز - رحمه الله، وذلك من بركة الشفا المبارك، وبسعادة أيامك - والحمد لله - أسعدك الله ونفعنا وإياك بالشفأ آمين - انتهى بحروفه .

وكتب بعضهم إلى الأمير على بن يوسف الوطاسى - يزعم أنه رآه يقرأ كتاب الشفا فى الجامع، فأول ذلك الوطاسى بالصدقة، لكونها شفاء .
قال صاحب «الروض الأنف، فى مآثر على بن يوسف»: وهذه مناسبة حسنة جدا - انتهى .

وحدث الشيخ أبو محمد بن الصائغ، أنه رأى القاضى عياضا فى النوم فى قصر قوائمه من ذهب، قال: فكان يسألنى عن مسألة، فأقول له: سيدى، ذكرت فيها فى كتاب الشفا كذا، فيقول لى: عندك ذلك الكتاب؟ فأقول له: نعم، فيقول لى: شد عليه، فبذلك نفعنى الله - أو نحو هذا .

قال الراوى عن ابن الصائغ المذكور: قال لى أبو محمد بن الصائغ المذكور: قد أخبرت بهذه الرؤيا ابن عمك أبا عبد الله، فقال لى: رأى إنسان - لا أدري أعن نفسه كنى أم عن غيره - أنه كان يرى الشيخ - رضى الله عنه - فى النوم، وإلى جانبه رجل طيب الرائحة، حسن الملبس، جميل الصورة كهيئة النبى - ﷺ، قال الراوى فكنت أقوم إلى الشيخ فأسلم عليه، فيقول لى: سلم على هذا، فأقول: ومن هو؟ فيقول لى: هذا الذى نفعنى الله به، أو نحو هذا - انتهى .

وقد قدمنا عن ابن صعد مثله، وكررته لأن هذا أتم فائدة مع ما فيه من

تسمية الرائي وغير ذلك، على أن ابن سعد، جعلهما حكايتين مختلفتين، وهذا جعلهما - حكاية واحدة - حسبما لقيته على نسخة عتيقة من الشفا، عليها خط جماعة من الأعلام - والله أعلم.

ومن مناقب الإمام القاضى أبى الفضل عياض، الداخلة فى أعمال بره، إقامته الحد على الفتح بن عبيد الله صاحب القلائد، وذلك أنه قصد مجلس قضائه - مخمرا، فتنسم بعض شهود المجلس منه رائحة الخمر، فأعلم القاضى بذلك، فأمر به، فاستثبت فى استنكااه وحده حدا تاما. وقد حكى هذه المنقبة أبو عبد الله بن عياض، وعن نقلها صاحب المعيار، ونص ما تعلق به الغرض من كلامه فى ذلك، وفى بعض تواريخ الأندلس، أن رجلا كان مع حمدين وابن رشد - حين كان يتعلمان العلم، فارتفع ابن حمدين حين بلغ القضاء والفتيا، وابن رشد كذلك، وخرج هذا الرجل متخلفا، فرفعته العامة أيام قضاء ابن حمدين، وذكروا له أنه شرب الخمر، فلما وقعت عينه عليه، قال له: يا شيخ، إنك أحمق؟ فقال الرجل: ما يعرفنى غيرك، فأمر بإرساله من أيديهم، ثم أخذوه ثانية، وذكروا أنهم وجدوه - ومعه الخمر، فقال: ما شأنك أيها الشيخ؟ فقال له: يا أخى، فساد الزمان، ومخافة الإخوان، ومعاداة العوام، هذا شأنى: فقال لهم: أعرف هذا مجنوننا، أرسلوه، فقال بعضهم لبعض: إن هذا القاضى لا يمكنكم منه، اقطعوا مادته، وكان له حمام وعتبة أخرى يستغلها. فأتوا إليهما فهدموهما، وحملوا جميع أنقاضهما وتراهما، وبقيتا عرصتين كأنهما ما عمرا قط، وقطعوا مادته من قطع معاشه، وهذا من نحو العفو عن شارب الخمر، لقوله - عليه السلام - أقيلا ذوى الهيئات زلاتهم. أخرج ابن أبى شيبه والنسائى.

وهو محمول على الندب، وقد يحتمل الوجوب، وهذا عكس ما اتفق للقاضى الفاضل، أبى الفضل عياض - رحمه الله - وهى من نوادره التى اضطره الشرع إليها، إقامته حد الخمر على الفتح بن خاقان، وذلك أنه قصد إلى مجلس قضائه مخمرا، فتنسم بعض شهود المجلس منه رائحة الخمر، فأعلم القاضى بذلك، فأمر فاستثبت فى استنكاهه، وحده حدا تاما.

قال ولد القاضى - محمد بن عياض: قال لى بعض أصحابنا، بعث أبوك إلى الفتح بن خاقان بعد أن أقام عليه الحد - صحبتى - ثمانية دنانير وعمامة.

وأخبرنى بعض أصحاب الفتح بن خاقان، أن الفتح قال له - بعد أن أقام عليه والدى الحد - عزمت على إسقاط اسم القاضى أبى الفضل من كتابى الموسوم بـ «قلائد العقيان»، قال: فقلت: لا تفعل وهى نصيحة، قال لى: وكيف ذلك؟ قال: فقلت له: قصتك معه من الجائز أن تنسى وأنت تريد أن تخلدها مؤرخة، فقال لى، وكيف؟ فقلت له: كل من نظر فى كتابك، يجده قد ذكرت مثله ودونه فى العلم والصيت، فيسأل عن السبب، فيقال له، فيتوارث العلم بذلك الأصاغر عن الأكابر، قال: فتبين له ذلك وعلم صحته - انتهى.

قلت: وقريب^(٢) مما وقع لابن حمدى، حكى عن القاضى أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى عيسى، قاضى الجماعة بقرطبة لعبد الرحمن الناصر، قال القاسم بن محمد كاتبه - أيام قضائه بالبيرة - ركبنا مع القاضى فى موكب حافل من وجوه البلد، إذ عرض لنا فتى متأدب قد خرج من بعض

(١) هذا المثبت هو الصواب، والذى فى المطبوع: «خافان» بالفاء.

(٢) المرقبة العليا ص ٦١.

الأزقة يتمايد سكرًا، فلما رأى القاضى هابه، وأراد الفرار، فخاتته رجلاه،
فاستند إلى الحائط وأطرق، فلما قرب منه القاضى، رفع رأسه إليه ثم أنشأ
يقول:

ألا أيها القاضى الذى عم عدله فأضحى به فى العالمين فريدا
قرأت كتاب الله ألفين مرة فلم أر فيه للشراب حدودا
فإن شئم جلدى فدونك منكبا صبورا على ريب الخطوب جليدا
وإن شئت أن تعفو تكن لك منة تروح بها فى العالمين حميدا
وإن كنت تختار الحدود فإن لى لسانا على هجو الرجال حديدا
قال: فلما سمع القاضى شعره، وتبين له أدبه، أعرض عنه ومضى
لشأنه - كأن لم يره - انتهى.

قال القاضى أبو الحسن^(١) النباهى، الظاهر من القاضى ابن أبى عيسى،
أنه ذهب إلى الأخذ فى القضية التى تضمنتها أبيات الفتى المتأدب بقول زفر:
إنّ حد الخمر لا يقوم بالإقرار مرة واحدة، حتى يقر الشارب على نفسه
بالشرب مرتين. أو بقول الشافعى والكوفى^(٢): أنه لا يحد إلا من الشهادة
على شربها أو قيئها، لا من الرائحة وتخيل السكر، أو ظن القاضى أن الفتى
ممن لم يبلغ سن التكليف، أو قيل له عنه إنه كان مكرها، وحسب النازلة من
باب درء الحدود بالشبهات - والله أعلم أى ذلك كان، فلا وجه لحكم فى
إسقاط حد لغير عذر ولا تأويل، فإجماع المسلمين، منعقد على تحريم خمر

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «ابن» وصوابه من المراقبة العليا.

(٢) فى المراقبة ص ٦١: «والكافى».

العنب النبیّ قلیله وکثیره، وعلى وجوب الحد فيه، وإنما الخلاف فى التفضیل والقدر، فمذهب الجمهور من السلف والفقهاء، مالک وأبى حنیفة والثورى والأوزاعی وأحمد وإسحاق و غیرهم، أن حده ثمانون جلدۀ. وقال قوم - منهم أهل الظاهر: أن حده أربعون. قال الشافعی: بالأیدی والنعال، وأطراف الثیاب، وعند مالک و غیره، الضرب فيه بسوط بین سوطین، وضرب بین ضربین، والحدود کلها سواء. وعند الزهري والثورى وإسحاق وأحمد والشافعی، أن حد الخمر أضعف الحدود^(١).

قال عیاض فى الإكمال، ورأى مالک وبعض أصحابنا فى المدمن، علیه التغلیظ بالفضيحة والطواف والسجن، واختلفوا فى المريض الذى لا یرجى برؤه، فذهب مالک والکوفیین وجمهور العلماء، أنه لا یرجى فيه إلا ما یرجى فى الصحيح ویتروک حتى یموت. وقال الشافعی: یضرب بعثکول نخل، یصل جمیع شماريخه إلیه، أو ما یقوم مقامه. والمذهب إلزام السکران جمیع أحكام الصحيح. لأنه أدخل ذلك على نفسه، وهو حقيقة مذهب الشافعی، وفرق بین الشارب مختاراً و بین المستکره^(٢).

وأکثر العلماء ذهب إلى أن الحدود کفارة، ومنهم من وقف واحتج بقوله تعالى: ﴿... لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة]، وفى حديث: ما عز الثابت فى الصحيح، ما يدل على أن التوبة لاتسقط حد الزانى والسرقة والخمر، وإنما تنفع عند الله^(٣).

(١) المرقبة العليا ص ٦١.

(٢) المرقبة العليا ص ٦١.

(٣) المرقبة العليا ص ٦٢.

وروى عن الشافعى، أن التوبة تسقط حد الخمر، وعلى كل تقدير، فمن الواجب على من وقع فى معصية وترتب بسببها قبله حق الله، وللناس من دم أو مال أو عرض أو انتهاك حرمة أن يبادر - أولاً - إلى التوبة، ثم يرجع بعدها إلى الإقادة من نفسه للخلق والتحلل من التبعات بجهد على الوجوه المقررة فى الفقهيات. وأن يكثّر من ذلك مدة حياته من العمل الصالح، ومن الدعاء والبكاء، وبخصوص فيما يرجع إلى الدماء، فالمنقول عن مالك - وقد سئل عمن كتب إليه وال فى قتل رجل فقتله، ثم أراد التنصل والتوبة، فعرض نفسه على أولياء المقتول وأخبرهم فقالوا: لسنا بقاتليك، وإنّا نخاف - إن قتلناك - عاقبة ذلك، وعرض عليهم الدية، فأبوا أن يقبلوها - فكان من جوابه - رضى الله عنه - أن قال: أحب إلى أن يؤدى دينه إليهم، وأن يعتق الرقاب ويتصدق، ويكرر الحج والغزو، وإن استطاع أن يلحق بالشجر ويكون فيها أبدا حتى يموت فهو أحب إلى^(١).

وفى الحديث: أقبلوا ذوى الهيئات عثراتهم. والمراد بذلك أهل المروءة والصلاح، ويبيّنه ما روى أن رسول الله - ﷺ - قال: تجافوا عن عقوبة ذوى المروءة والصلاح، والمأمورون بالتجافى عن زلات ذوى الهيئات عند العلماء. هم الأئمة الذين إليهم إقامة العقوبات على ذوى الجنايات، والإقالة هى فيما عدا الحدود. والزلات التى أمر بالتجافى عنها، هى ما لم يخرج بها فاعلها عن أن يكون من ذوى المروءات والهيئات التى هى الصلاح، فأما من أتى ما يوجب حدا ما، إما قذف محصنة أو ما سوى ذلك من الأشياء التى توجب الحدود، فلا يجب التجافى عنه، لأنه قد خرج بذلك عن ذوى الهيئات

(١) المرقبة العليا ص ٦٢.

والصلاح. وصار من أهل الفسق، فوجب إقامة الحد عليه، ليكون ذلك ردعا له ولغيره، رزقنا الله الاستقامة، وسلك بنا مسالك السلامة^(١).

انتهى كلام النباهي. وذكرته بجملته تكميلا للفائدة: وبالجملة، فما فعله القاضي عياض من إقامة الحد على الفتح، هو الحق الذي لا غبار عليه، ولا يتوجه الاعتذار إليه، وعكسه يحتاج إلى تأويل، والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل.

والفتح المذكور، هو إمام البلاغة والكتابة، وصاحب التأليف الشهيرة التي منها «قلائد العقيان، في محاسن الأعيان» و«مطمح الأنفس، ومسرح التأنس، في ملح أهل الأندلس» وغير ذلك.

وهو الفتح بن محمد بن عبيد الله، يكنى أبا نصر، ويعرف بابن خاقان، الكاتب الشهير القيسي، وهو من قرية تعرف بصخرة الوادي من قرى قلعة يحصب، خرج من موضعه وتجول في البلاد، وبرع في الكتابة والشعر، وامتدح الملوك، وشهر في الأمصار، وكان مترسلا بليغا، آية من آيات الله في البلاغة، لا يشق غباره، ولا يدرك شأوه عذب الألفاظ ناصعها، أصيل المعاني وثيقها، لعبوا بأطراف الكلام، معجزا في باب الحلى والصفات، إلا أنه كان مقدورا عليه في الرزق، محروما في الدنيا على غالب عادة أهل الأدب، لا يمل من المعاقرة والقصف، حتى هان قدره، وابتذلت نفسه، وساء ذكره، لذا قال ابن الأبار في معجم أصحاب الصدفي - إذ لم يذكره في التكملة: لم يكن مرضيا، وحذفه أولى من إثباته^(٢) - انتهى.

(١) المرقبة العليا ص ٦٢.

(٢) معجم أصحاب الصدفي، ص ٣٠٠.

ولم يدع بلدا من بلاد الأندلس، إلا ودخله - مسترفدا أميره، وواغلا على عليته، وكان كثير الأسفار، سريع التنقل، مرهب الشبا، قادرا على إظهار المثالب، وقد قال فى أبى بكر بن باجة - الشهير بابن الصائغ، آخر فلاسفة الإسلام بجزيرة الأندلس - على ما قال ابن الخطيب وغيره - ما هو مغلد فى كتابه «قلائد العقيان» إلى غابر الدهر، وبه ختم الكتاب المذكور.

وحدث بعض الأشياخ، أن سبب حقه عليه، ما كان من إزرائه به وتكذيبه إياه فى بعض المجالس، إذ جعل ذكر ما وصله به أمراء الأندلس، ووصف حليا - وكان يبدو من أنفه فضلة خضراء اللون - زعموا، فقال له ابن باجة - فمن تلك الجواهر إذن الزمردة التى على شاربك؟ فثلبه أبو نصر، وعلى ذلك كله فهو نسيج وحده - غفر الله له. قال ابن خاتمة: لم يعرف من المعارف بغير الكتابة والشعر والآداب.

قال الأستاذ فى الصلة - وكان معاصرا للكاتب المجيد، المحدث الجليل، أبى عبد الله بن أبى الخصال، إلا أن بطالته أخلدت به عن مرتبه. سمع - رحمه الله - من الأستاذ أبى على الصدفى، وأبى محمد ابن السيد البطليوسى، والقاضى أبى بكر بن العربى، وخططاه بذى الوزارتين، وحدث عن أبى الحسين بن سراج بحكايات، وروى عن أبى بكر بن القصيرة، وابن اللبانة، وأبى جعفر بن سعدون الكاتب، وأبى خالد بن بشتغير، وأبى الطيب ابن زرقون، وأبى عبد الله بن خلصة الكاتب، وأبى عبد الرحمن بن طاهر، وأبى محمد بن عبدون، وأبى الوليد بن حجاج - وغير واحد.

وروى عنه أبو عبد الله بن زرقون جميع تواليفه، وسمع كثيرا من نوادره وأخباره، وروى عنه أيضا، أبو بكر يحيى بن محمد الأركشى - فى آخرين يطول تعدادهم.

وَألف - رحمه الله - كتباً جمّة، ظهرت فيها براعته، وتبينت بلاغته وصناعته، منها: «قلائد العقيان، فى محاسن الأعيان» وكتاب «المطمح الكبير» وكتاب «المطمح الصغير» - كذا قال ابن خاتمة، وابن الخطيب، وقال ابن خلكان: «مطمح الأنفس ومسرح التأنس، فى ملح أهل الأندلس» - وهو ثلاث نسخ: كبرى. ووسطى، وصغرى، وهو كتاب كثير الفوائد، وكلامه فيه يدل على غزارة مادته^(١) - انتهى.

ومن تأليفه: «راية المحاسن وغاية المحاسن» ومجموع فى ترسيّله: وتوفى - رحمه الله - ذبيحاً بفندق لبّيب من حضرة مراکش، قيل: ليلة الأحد لثمان بقين من محرم، من عام تسع وعشرين وخمسائة، حكاه ابن الخطيب، وقال ابن الآبار: ليلة عيد الفطر، من سنة ثمان وعشرين وخمسائة، قال: قرأت ذلك بخط من يوثق به^(٢). وهذا الذى حكاه ابن الآبار هو المعتمد - عندى، وحكى ابن خلكان أنه توفى سنة خمس وثلاثين وخمسائة، وهو - عندى - خطأ، على أنه قد حكى القول الآخر، الذى هو سنة تسع وعشرين، وقد قيل إن قتله كان بإشارة أمير المسلمين: على بن يوسف بن تاشفين، أخى إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، الذى ألف برسمه «قلائد العقيان» وذكره فى خطبته، وقد أشار إلى هذا ابن خلكان^(٣) - والله أعلم.

وبالجملة، فقد ذبح - رحمه الله - فى هذا الفندق، وعبث به فى أحد بيوت الفندق المذكور، وما شعر به إلا بعد ثلاث ليال من مقتله. ودفن بباب الدباغين من محروسة مراکش - تجاوز الله عنه.

(١) انظر وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٩٨.

(٢) المعجم ص ٣٠١.

(٣) وفيات الأعيان ٤٩٨/٣.

ونشره - رحمه الله - شهير، وكتابته فائقة، فمما ثبت له من غير المتعارف من السلطانيات. ظهر كتبه عن بعض الأمراء لصاحب الشرط، ولا خفاء بإدلاله وبراعته^(١)، وهو: هذا كتاب تأكيد اعتناء، وتقليد ذى منة وغناء، أمر بإنقاذه فلان - أيده الله - لفلان بن فلان - صانه الله - ليتقدم لولاية المدينة الفلانية وجهاتها، ويصوح ما تكاثف من العدوان بجنبااتها، - تنويها أحظاه بعلائه. وكساه رائق ملائه، لما علمه من سنائه، وتوسمه من غنائه، ورجاه من حسن منابه، وتحققه من طهارة ساحته وجنابه، وتيقن - أيده الله - أنه مستحق بما ولاه، مستقل بما تولاه، لا يعتريه الكسل، ولا تشبه عن المضاء الصوارم والأسل، ولم يكل الأمر منه إلى وكل، ولا ناطه بمناط عجز ولا فشل، وأمره أن يراقب الله - تعالى - فى أوامره ونواهيه، ويعلم أنه زاجره عن الجور وناهيه، وساله عما حكم به وقضاه، وأنفذه وأمضاه: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار]، فليتقدم لذلك بحزم لا يخمد توقده، وعزم لا ينفد تفقده، ونفس مع الخير ذاهبة، وعلى متن البر والتقوى راكبة، ويقدم للاحتراس من عرف اجتهداه، وعلم أرقه فى البحث وسهاده، وحمدت أعماله، وأمن تفريطه وإهماله، ويضم إليهم من يحذو حذوهم، ويقفو شأوهم، مما لا يستراب بمناحيه، ولا يصاب خلل فى ناحية من نواحيه، وأن يذكى العيون على الجنة، وينفى عنها لذىذ السنة، ويفحص عن مكامنهم، حتى يغص بالروع نفس أمنهم، فلا يستقر بهم موضع، ولا يقر منهم مخب ولا موضع، فإذا ظفر منهم بمن ظفر بحث عن باطنه، وبث السؤال فى مواضع تصرفه ومواطنه، فإن لاحت شبهة أبداها الكشف والاستبراء، وتعداها البغى والافتراء، نكله بالعقوبة أشد نكال، وأوضح له منها ما كان ذا إشكال، - بعد أن يبلغ إناءه. ويقف على طرف

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ٣١.

مداه، وحد له ألا يكشف بشرة إلا فى حد يتعين، وإن جاءه فاسق أن يتبين، وأن لا يطمع فى صاحب مال موفور، وأن لا يسمع من مكشوف فى مستور، وأن يسلك السنن المحمود، وينزه عقوبته من الإفراط وعفوه من تعطيل الحدود، وإذا انتهت قصة مشكلة أخرها إلى غده، فهو على العقاب أقدر منه على رده، فقد يتبين فى وقت، ما لا يتبين فى وقت، والمعالجة بالعقوبة من المقت، وأن يتغمد هفوات ذوى الهيئات، وأن يستشعر الإشفاق، ويخلع التكبر فإنه من ملابس أهل النفاق، وليحسن لعباد الله اعتقاده، ولا يرفض زمام العدل ولا مقاده، وأن يعاقب المجرم قدر زلته، ولا يعتز عند ذلته وليعلم أن الشيطان أغواه، وزين له مثواه، فيشفق من عثاره، وسوء آثاره، وليشكر الله على ما وهبه من العافية، وألبسه من ملابسه الضافية، ويذكره - جل وعلا - فى جميع أحواله، ويفكر فى الحشر وأهواله، ويتذكر وعدا بنجز فيه ووعيدا، "يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا" والأمير - أيده الله - ولى له - ما عدل وأقسط، وبرئ منه أن جار وقسط، فمن قرأه فليقف عند حده ورسمه، وليعرف له حق قطع الشر وحسمه، ومن وافقه من شريف أو مشروف، وخالفه فى نهى عن منكر أو أمر بمعروف، فقد تعرض من العقاب لما يذيقه وبال فعله. ﴿... وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ...﴾ (٤٣) [فاطر] - انتهى.

ومن مكاتباته الرائقة. قوله^(١): أطال الله بقاء الوزير الأجل، عتادى الأسرى. وزنادى الأورى. وأيامه أعياد. وللسعد فى زمانه انقياد: أما أنا - أدام الله عزه - فجوى عاتم، وأعيادى مآتم، وصبحى عشاء. ومالى إلا من الخطوب انتشاء، أبيت بين فؤاد خافق وطرف مسهد. نائى الملحة من مزار

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ٣٦.

العود، حين لا أرى الروض المنور، ولا أحس سهيلاً إذ لاح ثم تَغَوَّرَ: وقد بعدت دار إلى حبيبة، ودنت منى حوادث بأدناها توذى الشبيبة، وأى عيش لمن لزم المفاوز لا يريمها، حتى ألفه ريمها، قد رمته النوائب فما اتقى، وارتقت له الجوانح فى وعور المرتقى، يواصل النوى ولا يهجر سيرا، ولا يزجر فى الإراحة طيرا، قد هام بالوطن، هيام ابن طالب بالحوض والعطن، وحن إلى تلك البقاع، حنينه إلى أثلاث القاع، ولا سبيل أن يشعب صدع بينه شاعب، أو تكملة أحجار للدار وملاعب، وليس له إلى أمين يجنح، ولا يرى أمله ينسج، قد طوى البلاد وبسطها، وتطرف الأرض وتوسطها، ولم يلف مقيلاً، ولا وجد مقيلاً، إلى الله أشكو ما أقاسى وأقاصى، وبيده الأقدام والنواصي، ولقاؤه موعد كل موعد، وكل معمر سيدركه يوماً حمام الموعد، وأنفذته - وقد صدرت عن فلانة بعد أهوال لقيتها، وأنكال سقيتها، وسفر لقيت منه نصبا، وكدر أعقبني وصبا، وإلى متى يعتزلنى السعد، و﴿... لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ...﴾ (٤) [الروم].

قال بعضهم: ومن أحسن ما رأيت له، قوله^(١): معاليك أشهر رسوما، وأعطر نسима، من أن يغرب شهاب مسعاها، أو يجذب لرائد مرعاها، فإن نبهتك فإنما نبهت عمرا وإن استنرتك فإنما أستنير قمرا: والأمير - أيده الله - أجل من أن أعصم فى ملكه. وأنتظم فى سلكه، فإنه حسام بيد الملك طلاقته فرنده، وشهامته حده، وقضيب فى دوحة الشرف رطيب، بشره زهره، وبره ثمره، وقد توسمت نارك لعلى أفوز منها بقبس، أو تكون كنار موسى بالواد المقدس، وعسى الأمل أن تعلو بكم قداحه، ويشف من أفقكم مصباحه فجرد - أيدك الله - صارم عزم لا يفل غروبه. واطلع كوكب سعد لا يخاف غروبه - انتهى.

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ٣٨.

المطمح ولنذكر بعض كلام الفتح فى المطمح، فإنى رأيت منه أوراقا بخزانة الكتب بتلمسان. ولفظه كلفظ القلائد، غير أنه زاد فى عدد الرجال، ووقفت فى مقيداتى على جملة من ذلك، وهأنا أثبتته - وإن كنت لم أر الكتاب المذكور، ولم أقف منه على غير هذه الأوراق، على أنى لست على يقين أن ذلك هو المطمح، وإنما غلب على ظنى بموافقة لفظ القلائد.

فمن ذلك، قوله عند ذكر المنصور بن أبى عامر - رحمه الله - بعد كلام ما نصه^(١): وتمرس المنصور ببلاد الشرك أعظم تمرس، ومحا من طواغيتها كل تعجرف وتغطرس، وغادرهم صرعى البقاع، وتركهم أذل من وتد البقاع، ووالى إلى بلادهم الوقائع، وسدد إلى أكبادهم سهام الفجائع، وأغص بالحمام أرواحهم^(٢)، ونغص بتلك الآلام بكورهم ورواحهم، ومن أوضح الأمور هنالك، وأفصح الأخبار فى ذلك - أن أحد رسله كان كثير الانتياب، لذلك الجنب، فسار فى بعض مسيراته إلى غرسية صاحب البشكش فوالى فى إكرامه، وتناهى فى بره واهتمامه، فطالت مدته فلا متنزه إلا مر عليه متفرجا، ولا موضع إلا سار عليه معرجا، فحل فى ذلك، أكثر الكنائس هنالك، فبينما هو يجول فى ساحتها، ويجيل العين فى مساحتها، إذ عرضت له امرأة قديمة الأسر، قويمة - على طول الكسر، فكلمته، وعرفته بنفسها وأعلمته، وقالت له: أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بؤسها، ويتمتع بلبوس العافية وقد نضت لبوسها، وزعمت أن لها عدة من السنين بتلك الكنيسة محبسة، وبكل ذل وصغار ملبسة، وناشدته الله فى إنهاء قصتها، وإبراء غصتها، واستحلفته بأغلظ الأيمان، وأخذت عليه فى ذلك أوكد

(١) نفح الطيب ٤٠٣/١.

(٢) هذا الصواب من النفح، والذي فى المطبوع: «أوراحهم».

مواثيق الرحمن، فلما وصل إلى المنصور عرفه بما يجب تعريفه به وإعلامه، وهو مصغ إليه حتى تم كلامه، فلما فرغ من قصته، قال له المنصور: هل وقفت هنالك على أمر أنكرته، أم لم تقف على غير ما ذكرته، فأعلمه بقصة المرأة وما خرجت عنه إليه. وبالمواثيق التي أخذت عليه، فعتبه ولامه، على أن لم يبدأ بها كلامه، ثم أخذ في الجهاد من فوره، وعرض [مَنْ] مِنَ الأجناد في نجد وغور، وأصبح غازيا على سرجه، مباهيا مروان يوم مرجه^(١)، حتى وافى ابن شانجة في جمعه، فأخذت مهابته ببصره وسمعه، فبادر بالكتاب إليه يتعرف ما الجنية، ويحلف له بأعظم آية، أنه ما جنى ذنبا، ولا جفا عن مضجع الطاعة جنبا، فعنف أرساله وقال لهم: كان قد عاقدني ألا يبقى ببلاده مأسورة ولا مأسور، ولو حملته في حواصله النصور، وقد بلغني بعد مقام فلانة المسلمة بتلك الكنيسة. ووالله لا أنتهى عن أرضه حتى أكتسحها، فأرسل إليه المرأة في اثنتين معها، وأقسم أنه ما أبصرهن، ولا سمع بهن، وأعلمه أن الكنيسة التي أشار بعلمها، قد بالغ في هدمها، تحقيقا لقوله، وتضرع إليه في الأخذ فيه بطوله، فاستحيا منه، وصرف الجيش عنه، وأوصل المرأة إلى نفسه، وألحق توحشها بأنسه، وغير من حالها، وعاد بسواكب نعماء على جذبها وإمحالها، وحملها إلى قومها، وكحلها بما كان شرد من نومها. انتهى.

ومن ذلك قوله في المنصور أيضا ما نصه^(٢): فرد نابه لى من تقدمه، وصرفه استخدمه، فإنه كان أمضاهم سنانا، وأذكاهم جنانا، وأتمهم جلالا،

(١) يعنى يوم مرج راهط .

(٢) نفح الطيب ١/ ٤٠٥ .

وأظمهم استقلالاً، فآل أمره إلى ما آل، وأوهم العقول بذلك المآل، فإنه كان آية الله في اتفائق سعده، وقربه من الملك بعد بعده، بهر برفعة القدر، واستظهر بالأنانة وسعة الصدر، وتحرك فلاح نجم الهدو، وتملك فأخفق بأرضه كل عدو، بعد خمول كابد منه غصصا وشرقا، وتعذر مأمول طارد فيه سهرا وفرقا، حتى أنجز له الموعد، وفر نحسه أمام تلك السعود، فقام بتدبير الخلافة، وأقعد من كان له فيها إنافة، وساس الأمور أحسن سياسة، وداس الخطوب أحسن دياسة، فانتظمت له الممالك، واتضحت له المسالك، وانتشر الأمن في كل طريق، واستشعر اليمن كل فريق، وملك الأندلس بضعا وعشرين حجة، لم تدحض لسعادته حجة، ولم تزخر لمكوره بها حجة، لبست فيها البهاء والإشراق، وتنفست عن مثل أنفاس العراق، وكانت أيامه أحمد أيام، وسهام بأسه أشد سهام، غزا الروم شاتيا وصائفاء، ومضى فيما يروم زاخرا وعائفاء، فأوغل في تلك الشعاب، وتغلغل حتى راع ليث الغاب، ومشى تحت ألويته صيد القبائل، واستجرت في ظلها بيض الظبا وسممر الذوابل، وهو يقتضى الأرواح بغير سوم، وينتضى الصفايح على كل روم، ويتلف من لا ينساق للخلافة وينقاد، ويختطف منهم كل كوكب وقاد، حتى استبد وانفرد، وأنس إليه من الطاعة ما نفر وشرد، وانتظمت له الأندلس بالعدوة، واجتمعت له اجتماع قریش في دار الندوة، ومع هذا لم يخلع اسم الحجابة، ولم يدع السمع لخليفته والإجابة، ظاهرا يخالفه الباطن، واسما ينافره مواقع الحكم والمواطن، وأذل قبائل الأندلس بإجازة البرابر، وأحمل بهم أولئك الأعلام الأكابر، فإنه قاومهم بأضدادهم، واستكثر من أعدادهم، حتى تغلبوا على الجمهور، وسلبوا منهم الظهور، ووثبوا عليهم الوثوب المشهور، الذى أعاد أكثر الأندلس قفرا يبابا، وملاها وحشا وذئابا، وأعراها

من الأمان، برهة من الزمان، وعلى هذه الهنة فهو وابنه المظفر كان آخر سعد
الأندلس، وحد السرور بها والأنس، وغزواته فيها شائعة الأثر، رائعة
كالسيف ذى الأثر، وحسبه وافر، ونسبه معافر، ولذلك قال يفخر:

رمى^(١) بنفسي هول كل كريهة وخاطرت والحر الكريم يخاطر
وما صاحبي إلا جنان مشيع وأسمر خطي وأبيض باتر
وأنى لزجاء الجيوش إلى الوغى أسود تلاقىها أسود خواد
فسدت بنفسي أهل كل سيادة وكاثرت حتى لم أجد من أكاثر
وما شدت بنيانا ولكن زيادة على ما بنى عبد الملوك وعامر
رفعنا المعالي بالعوالى حديثه وأورثناها فى القديم معافر
وكانت أمه تيمية^(٢) فحاز الشرف بطرفيه، والتحف بمطرفيه، قال
القسطلى:

تلاقت عليه من تميم ويعرب شمس تلالا فى العلا وبدور
من الحميريين الذين أكفهم سحائب تهيمى بالندى وبحور
وتصرف^(٣) قبل ولايته فى شتى الولايات، وجاء من التحدث بمنتهى
أمره بآيات، حتى صح زجره وجاء بصحبة فجره، تؤثر عنه فى ذلك أخبار،
فيها عجب واعتبار، وكان أديبا محسنا، وعالما متفطنا، فمن ذلك قوله - يمنى
نفسه بملك مصر والحجاز، ويستدعى صدور تلك الأعجاز:

(١) نفح الطيب ٤٠٦/١.

(٢) نفح الطيب ٤٠٦/١.

(٣) نفح الطيب ٤٠٦/١.

منع العين أن تذوق المناما حبها أن ترى الصفا والمقاما^(١)
لى ديون بالشرق عند أناس قد أحلوا بالمشعرين الحراما
إن قضوا نالوا الأمانى وإلا جعلوا دونها رقابا وهاما
عن قريب ترى خيول هشام يبلغ النيل خطوها والشاما
وفى سنة ثمان وستين وثلاثمائة^(٢)، أمر المنصور بن أبى عامر ببناء
قصره المعروف بالزاهرة، وذلك عندما استفحل أمره، واتقد جمرة وظهر
استبداده، وكثر حساده، وخاف على نفسه فى الدخول إلى قصر السلطان،
وخشى أن يقع فى أشطان، فتوثق لنفسه، وكشف له ما ستر عنه فى أمسه،
من الاعتزاز عليه، ورفع الاستناد إليه، وسما إلى ما سمت إليه الملوك من
اختراع قصر ينزل فيه، ويحله بأهله وذويه، ويضم إليه رئاسته، ويتم به
تدبيره وسياسته، ويجمع فيه فتياه وغلمانه، فارتاد موضع مدينته المعروفة
بالزاهرة، الموصوفة بالقصور الباهرة، وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة
الأعظم، ونسق فيها كل اقتدار معجز ونظم، وشرع فى بنائها فى هذه السنة
المؤرخة، وحشد إليها الصناع والفعلة، وجلب إليها الآلات الجليلة، وسربلها
بهاء يرد العيون كليلة، وتوسع فى اختطاطها، وتولع بانتشارها فى البسيطة
وانبساطها، وبالع فى رفع أسوارها، وثابر على تسوية أنجادها وأغوارها،
فاتسعت هذه المدينة فى المدة القريبة، وصار بناؤها من الأبناء الغربية، وبنى
معظمها فى عامين.

(١) نفح الطيب ٤٠٦/١.

(٢) نفح الطيب ٥٧٨/١.

وفى سنة^(١) سبعين وثلاثمائة، انتقل المنصور إليها، ونزلها بخاصته وعامته، فتبوأها وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته، واتخذ فيها الدواوين والأعمال، وعمل فى داخلها الأهراء. وأطلق بساحتها الأرحاء، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه، وقواد وحجابه، فابتنوا بها كبار الدور، وجليات القصور، واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة، والمنازله المشيدة، وقامت بها الأسواق، وكثرت فيها الأرفاق، وتنافس الناس فى النزول بأكنافها، والحلول بأطرافها، للدنو من صاحب الدولة، وتناهى الغلو فى البناء حوله، حتى اتصلت أرباضه بأرباض قرطبة، وكثرت بحوزتها العمارة، واستقرت فى بحبوحتها الإمارة، وأفرد الخليفة من كل شىء إلا من الاسم الخلفى، وصير ذلك هو الرسم العافى، ورتب فيها جلوس وزرائه، ورءوس أمرائه، وندب إليها كل ذى خطة بخطته، ونصب ببابها كرسى شرطته، وأجلس عليها واليا على رسم كرسى الخليفة، وفى صفة تلك الرتبة المنفية.

وكتب إلى الأقطار^(٢) بالأندلس والعدوة بأن تحمل إلى مدينته تلك أموال الجبايات، ويقصدها أصحاب الولايات، ويتابها طلاب الحوائج، وحذر أن يعوج عنها إلى باب الخليفة عائج، فاقتضيت لديها اللبانات والأوطار، وانحشد الناس إليها من جميع الأقطار، وتم لمحمد بن أبى عامر ما أراد، وانتظم بلبه أمانيه المراد، وعطل قصر الخليفة من جميعه، وصيره بمعزل من سامعه ومطيعه، وسد باب قصره عليه، وجد فى خبر أن لا يصل إليه، وجعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر، ويبسط فيه النهى والأمر،

(١) نفح الطيب ٥٧٩/١.

(٢) نفح الطيب ٥٧٩/١.

ويشرف منه على كل داخل، ويمنع ما يحذره من الدواخل، ورتب عليه الحراس والبوابين، والسماز والمتابين، يلازمون حراسة من فيه ليلا ونهارا، ويراقبون حركاتهم سرا وجهارا، قد حجر على الخليفة كل تدبير، ومنعه من تملك قبيل أو دبير، وأقام الخليفة هشام مهجور الفناء، محجور الغناء، خفى الذكر، عليل الفكر، مسدود الباب، محجوب الشخص عن الأحياب، لا يراه خاص ولا عام، ولا يخاف منه بأس ولا يرجى له إنعام، ولا يعهد منه إلا الاسم السلطاني فى السكة والدعوة، وقد نسخه ولبس أبهته، وطمس بهجته، وأغنى الناس عنه، وأزال أطماعهم منه، وصيرهم لا يعرفونه، وأمرهم أن لا يذكروه، اشتد ملك محمد بن أبى عامر منذ نزل قصر الزاهرة، وتوسع مع الأيام فى تشييد بنيتها، حتى كملت أحسن كمال، وجاءته فى نهاية الجمال، نقاوة بناء وسعة فناء، واعتدال هواء رق أديمه، وصقالة جو اعتل نسيمه، ونضرة بستان، وبهجة للنفوس فيها افتنان، وفيها يقول صاعد اللغوى^(١):

يا أيها الملك المنصور من يمن	والمبتنى نسا غير الذى انتسبا
بغزوة فى قلوب الشرك رائعة	بين المنايا تناغى السمر والقضبا
أما ترى العين تجرى فوق مرمرها	هوى فيجرى على أحفافها الطربا
أجريتها فطما الزاهى بجريتها	كما طموت فسدت العجم والعربا
تخال فيه جنود الماء رافلة	مستلئمات تريك الدرع واليلبا
تحفها من فنون الأيك زاهرة	قد أورقت فضة إذ أورقت ذهباً

(١) نفح الطيب ١ / ٥٨٠ .

بديعة الملك ما ينفك ناظرها يتلو على السمع منها آية عجبا
لا يحسن الدهر أن ينشي لها مثلا ولو تعنت فيها نفسه طلبا
ودخل عليه ابن أبي الحباب^(١) في بعض قصوره من المنية، المعروفة
بالعامرية، والروض قد تفتحت أنواره، وتوشحت أنجاده وأغواره، وتصرف
فيها الدهر متواضعا، ووقف بها السعد خاضعا، فقال:

لا يوم كالיום في أيامك الأول بالعامرية ذات الماء والظلل
هواؤها في جميع الدهر معتدل طيب وإن حل فصل غير معتدل
ما إن يبالى الذى يحتل ساحتها بالسعد أن لا تحل الشمس بالحمل
وما زالت هذه المدينة^(٢) رائقة، والسعود بلبتها متناسقة، تراوحها
الفتوح وتغاديتها، وتجلب إليها منكسرة أعاديها، لا تزحف منها راية إلا إلى
فتح، ولا يصدر عنها تدبير إلا إلى نجاح، إلى أن حان يومها العصيب وقبض
لها من المكروه أوفر نصيب، فتولت فقيدة، وخلت من بهجتها كل عقيدة -
انتهى.

ولست أتيقن أن جميعه كلام الفتح، مع أنى وجدت فى بعض التواريخ
نسبته إليه، فأثبت جميعه لشدة مناسبة بعضه لبعض، على أنه لا يبعد جميعه
عن نفسه - والله أعلم، ثم تحققت أنه كلام الفتح فى المطمح. وقد تعلق
غرضى بذكر بعض كلام هذا المؤرخ فى شأن المنصور بن أبى عامر لما فيه من
ذكر جامع قرطبة، ونصه:

وكان المنصور، آية من آيات فاطرة، دهاء ومكرا وسياسة، عدا

(١) نفح الطيب ٥٨١/١.

(٢) نفح الطيب ٥٨١/١.

بالمصاحفة على الصقالبة، حتى قتلهم وأذلهم، ثم عدا بغالب الناصرى على المصاحفة. حتى قتلهم وأبادهم، ثم عدا بجعفر بن الأندلسى على غالب، حتى قتله، ثم عدا بنفسه على جعفر وقتله، ثم انفرد بنفسه، وصار ينادى صروف الدهر هل من مبارز؟ فلما لم يجده حمل الدهر على حكمه، فانقاد له وساعده، فاستقام أمره منفردا بمملكة لا سلف له فيها، ومن أوضح الدلائل على سعده، أنه لم ينكب قط فى حرب شهدها، ولا توجهت عليه هزيمة، ولا انصرف عن موطن إلا قاهرا غالبا، على كثرة ما زاول من الحروب ومارس من الأعداء. وواجه من الأمم، وإنها لخاصة، ما أحسب شركه فيها أحد من الملوك الإسلامية، ومن أعظم ما أعين به مع قوة سعده، وتمكن جده، سعة جوده، وكثرة بذله، فقد كان فى ذلك أعجوبة الزمان، وأول من اتكأ على أرائك الملك وارتفق، وانتشر عليه لواء السعد وخفق، حظ صاحبه المصحفى، وأثار له كامن حقه الخفى، حتى أصاره للهموم لبيسا، وفى غيابات السجن حبيسا، فكتب إليه يستعطفه.

هبنى أسأت فأين العفو والكرم إذ قادنى نحوك الإذعان والندم^(١)
يا خير من مدت الأيدى إليه أما ترثى لشيخ نعاه عندك القلم
بالغت فى السخط فاصفح صفح مقتدر إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا
فما زاده ذلك إلا حنقا وحقدا، وما أفادته الأبيات إلا تضرما ووقدا، فراجعه بما أياسه، وأراه مرمسه، وأطبق عليه محبسه، وضيق تروحه من المحنة وتنفسه:

(١) نفح الطيب ٤٠٧/١.

الآن يا جاهلا زلت به القدم تبغى التكرم لما فاتك الكرم^(١)
أغريت بى ملكا لولا تثبته ما جاز لى عنده نطق ولا كلم
فايأس من العيش إذ قد صرت فى طبق إن الملوك إذا ما استنقموا نقموا
نفسى إذا سخطت ليست براضية ولو تشفع فيك العرب والعجم
وكان من أخبار المنصور^(٢) الداخلة فى أبواب البر والقربة، بنيان المسجد
الجامع، والزيادة فيه سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، وذلك أنه لما زاد الناس
بقرطبة، وانجلب إليها قبائل البربر من العدو وإفريقية، وتناهى حالها فى
الجلالة، ضاقت الأرباض وغيرها، وضاق المسجد الجامع عن حمل الناس،
فشرع المنصور فى الزيادة بشرقيه حيث تمكن الزيادة، لاتصال الجانب الغربى
بقصر الخلافة، فبدأ ابن أبى عامر هذه الزيادة على بلاطات، تمتد طولاً من
أول المسجد إلى آخره، وقصد ابن أبى عامر فى هذه الزيادة المبالغة فى
الإتقان، والوثاقة دون الزخرفة، ولم يقصر مع هذا عن سائر الزيادات جودة،
ما عدا زيادة الحكم، وأول ما عمله ابن أبى عامر، تطيب نفوس أرباب
الدور، الذين اشترت منهم للهدم لهذه الزيادة، بإنصافهم من الثمن، وصنع
فى صحنه الحب العظيم قدره، الواسع فناؤه، وابن أبى عامر رتب إحراق
الشمع بالمسجد الجامع، زيادة للزيت، فتطابق بذلك النوران، وكان عدد
سوارى الجامع الحاملة لسمائه، واللاصقة بمبانيه وقباه ومناره، بين كبيرة
وصغيرة، ألف سارية وأربعمائة سارية وسبع عشرة سارية، وعدد ثريات
الجامع ما بين كبيرة وصغيرة مائتان وثمانون ثريا، وعدد الكتوس سبعة آلاف

(١) نفح الطيب ٤٠٨/١، والبيان المغرب ٢/٢٨٧ - ٢٨٨.

(٢) نفح الطيب ٤٠٨/١.

كأس وأربعمائة كأس وخمسة وعشرون كأساً، وزنة مشاكي، وزنة الرصاص للكئوس المذكورة عشرة أرباع أو نحوها، وزنة ما يحتاج إليه من الكتان للفتائل في كل شهر رمضان ثلاثة أرباع القنطار^(١)، وجميع ما يحتاج إليه الجامع من الزيت في السنة خمسمائة ربع أو نحوها، يصرف منه في رمضان خاصة نحو نصف العدد، ومما كان يختص برمضان المعظم، ثلاثة قناطير من الشمع، وثلاثة أرباع القنطار من الكتان المُقَصَّر^(٢) لإقامة الشمع المذكور، والكبيرة من الشمع، التي توقد بجانب الإمام يكون وزنها من خمسين إلى ستين رطلاً، يحترق بعضها بطول الشهر، ويعم الحرق لجميعها ليلة الختمة، وكان عدد من يخدم الجامع المذكور بقربة في دولة ابن أبي عامر، ويتصرف فيه من أئمة ومقربين، وأمناء ومؤذنين، وسدنة وموقدين، وغيرهم من المتصرفين، مائة وتسعة وخمسين شخصاً، ويوقد من البخور ليلة الختمة أربع أوراق من العنبر الأشهب، وثمان أوراق من العود الرطب الطيب.

ومن ذلك بنيان قنطرة على نهر قرطبة الأعظم^(٣)، ابتداءً ببناء المنصور سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة، وفرغ منها في النصف من سنة تسع وسبعين، وانتهت النفقة عليها إلى مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار، فعظمت بها المنفعة، وصارت صدرًا في مناقبه الجليلة، وكانت قطعة أرض لشيخ من العامة ولم يكن للقنطرة عدول عنها، فأمر المنصور أمناءه بإرضائه فيها. فحضر الشيخ عندهم، فساوموه في القطعة، وعرفوه وجه الحاجة إليها، وأن المنصور لا يريد إلا إنصافه فيها، فرماهم الشيخ بالغرض الأقصى عنده فيما ظنه ألا تخرج عنه بأقل من عشرة دنانير ذهباً، كانت عنده أقصى الأمانة

(١) هذا الصواب من البيان المغرب، وفي المطبوع: «القناطر».

(٢) هذا المثبت من البيان المغرب، والذي في المطبوع: «المقطن».

(٣) نفح الطيب ٤٠٨/١، والبيان المغرب ٢٨٨/٢.

وشرطها صحاحا، فاغتتم الأمناء غفلته ونقدوه الثمن، وأشهدوا عليه، ثم أخبروا المنصور بخبره، فضحك من جهالته، وأنف من غبنه، وأمر أن يعطى عشرة أمثال ما سأل، وتدفع له صحاحا - كما قال: فقبض الشيخ مائة دينار ذهباً، فكاد أن يخرج من عقله، وأن يجن عند قبضها من الفرح، وجاء محتفلاً في شكر المنصور، وصارت قصته خبراً سائراً.

ومن ذلك أيضاً^(١)، بناء قنطرة على نهر إستجة، وهو نهر شليل، وتحشم لها أعظم مئونة، وسهل الطرق الوعرة والشعاب الصعبة.

ومن ذلك^(٢)، أنه خط بيده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره، يدرس فيه ويتبرك به.

ومن قوة رجائه^(٣)، أنه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته، ومواطن جهاده، فكان الخدم يأخذونه عنه المناديل، في كل منزل من منازلهم، حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتصويره في حنوطه، وكان يحملها حيشماً سار مع أكفانه، توقعا لحللول منيته، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته، وكان يسأل الله - تعالى - أن يتوفاه في طريق الجهاد، فكان ذلك.

وكان متمسماً^(٤) بصحة باطنه، واعترافه بذنبه، وخوفه من ربه، وكثرة جهاده، وإذا ذكر بالله ذكر، وإذا خوف من عقابه ازدجر، ولم يزل متترها عن

(١) نفح الطيب ١/٤٠٩، والبيان المغرب ٢/٢٨٨.

(٢) نفح الطيب ١/٤٠٩، والبيان المغرب ٢/٢٨٨.

(٣) نفح الطيب ١/٤٠٩، والبيان المغرب ٢/٢٨٨.

(٤) نفح الطيب ١/٤٠٩، والبيان المغرب ٢/٢٨٩.

كل ما يستتر به الملوك سوى الخمر، لكنه أفلح عنها قبل موته بسنين، وكان عدله فى الخاصة العامة واطراحه للهوادة، وبسطه الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته، أمرا مضروبا به المثل .

ومن عدله^(١) أنه وقف عليه رجل من العامة يوما بمجلسه، فناداه: يا ناصر الحق، إن لى مظلمة عند ذلك الوصيف الذى على رأسك - وأشار إلى الفتى صاحب الدركة، وكان له فضل محل عند ابن أبى عامر، ثم قال: وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت، فقال المنصور - أو عبد الرحمن ابن فطيس بهذا العجز والمهانة، وكنا نظنه أمضى من ذلك؟ - اذكر مظلمتك يا هذا، فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما، قطعها من غير نصف، فقال المنصور: ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية، ثم نظر إلى الصقلبى - وهو قد ذهل عقله، فقال له: ادفع الدركة إلى فلان، وأنزل صاغرا، وساو خصمك فى مقامه، حتى يرفعك الحق أو يضعك، ففعل ومثل بين يديه، ثم قال لصاحب شرطته الخاص به، خذ بيد هذا الفاسق الظالم. وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجهه الحق من سجن أو غيره، ففعل ذلك، وعاد الرجل إليه شاكرا، فقال له المنصور، قد انتصفت أنت فاذهب لسبيلك، وبقي انتصافى أنا ممن تهاون بمنزلتى، فتناول الصقلبى بأنواع من المذلة، وأبعده عن الخدمة.

ومن ذلك^(٢)، قصة فتاه الكبير، المعروف بالبرقى مع التاجر المغربى، فإنهما تنازعا فى خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى المذكور - وهو

(١) نفح الطيب ١/ ٤٠٩، والبيان المغرب ٢/ ٢٨٩.

(٢) نفح الطيب ١/ ٤١٠، والبيان المغرب ٢/ ٢٨٩.

يومئذ أكبر خدَم المنصور، وإليه أمر داره وحرمه، فدافع الحاكم، وظن أن جأهه يمنع من إحلافه، فصرخ التاجر بالمنصور فى طريقه إلى الجامع - متظلما من الفتى، فوكل به فى الوقت من حملة إلى الحاكم، فأنصفه منه، وسخط عليه المنصور، وقبض نعمته منه ونفاه.

ومن ذلك^(١) قصة محمد فَصَّاد المنصور، وخادمه وأمينه على نفسه، فإن المنصور احتاجه يوما إلى الفصد، وكان كثير التعهد له، فأنفذ رسوله إلى محمد، فألفاه الرسول محبوسا فى سجن القاضى محمد بن زرب، لِحَيْفٍ ظهر منه على امرأته، قدر أن سبيله من الخدمة، يحميه من العقوبة، فلما عاد الرسول إلى المنصور بقصته، أمر بإخراجه من السجن مع رقيب من رقباء السجن، يلزمه إلى أن يفرغ من عمله عنده، ثم يعيده إلى محبسه، ففعل ذلك على ما رسمه، وذهب الفاصد إلى شكوى ما ناله، فقطع عليه المنصور، وقال له: يا محمد إنه القاضى، وهو فى عدله، ولو أخذنى الحق ما أطق الامتناع منه، عد إلى محبسك، واعترف بالحق، فهو الذى يطلقك، فانكسر الحاجم، وزالت عنه ربح العناية، وبلغت قصته للقاضى، فصالحه مع زوجته، وزاد القاضى شدة فى أحكامه.

ومن دهائه^(٢)، قال ابن حيان: إنه كان جالسا فى بعض الليالى، وكانت ليلة شديدة البرد والريح والمطر، فدعا بأحد الفرسان وقل له: انهض الآن إلى فج طليارش وأقم فيه، فأول خاطر يخطر عليك، سقه إلى، قال: فنهض الفارس وبقى فى الفج فى البرد والريح والمطر - واقفا على فرسه، إذا

(١) نفح الطيب ١/ ٤١٠، والبيان المغرب ٢/ ٢٩٠.

(٢) نفح الطيب ١/ ٤١١، والبيان المغرب ٢/ ٢٩٠.

وقف قرب الفجر شيخ هرم على حمار له ومعه آلة الخطب، فقال له الفارس: إلى أين تريد يا شيخ؟ فقال: وراء حطب، فقال الفارس فى نفسه: هذا شيخ مسكين نهض إلى الجبل يسوق حطبا، فما عسى أن يريد المنصور منه؟ قال: فتركته فسار عنى قليلا، ثم فكرت فى قول المنصور، وخفت سطوته، فنهضت إلى الشيخ وقلت له: ارجع إلى مولانا المنصور فقال: وما عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلى، سألتك بالله أن تتركنى لطلب معيشتى؟ فقال له الفارس: لا أفعل، ثم قدم به على المنصور، ومثله بين يديه - وهو جالس لم ينم ليلته تلك، فقال المنصور للصقالبة: فتشوه، ففتش فلم يوجد عنده شىء، فقال: فتشوا برذعة حمارة، فوجدوا داخلها كتابا من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور يخدمون عنده إلى أصحابهم من النصارى. ليقبلوا ويضربوا فى إحدى النواحي المعلومة، فلما انبلج الصبح، أمر بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة، فضربت أعناقهم، وضربت رقبة الشيخ معهم.

ومن ذلك^(١)، قصة الجوهري التاجر، وذلك أن رجلا جوهريا من تجار المشرق، قصد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثير، وأحجار نفيسة، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنة، ودفع إلى التاجر الجوهري صرته، وكانت قطعة يمانية، فأخذ التاجر فى انصرافه طريق الرملة على شط النهر، فلما توسطها - واليوم قائظ وعرقه منص - دعتة نفسه إلى التبرد فى النهر، فوضع ثيابه وتلك الصرة على الشط، فمرت حدأة، فاختطف الصرة تحسبها لحما، وصاعدت فى الأفق ذاهبة، فقطعت الأفق الذى تنظر إليه عين الناجر، فقامت قيامته، وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة فأسر الحرن فى

(١) نفع الطيب ٤١٢/١، والبيان المغرب ٢/٢٩١.

نفسه، ولحقه لأجل ذلك علة اضطرب فيها، وحضر الدفع إلى التجار، فحضر الرجل لذلك بنفسه، فاستبان للمنصور ما بالرجل من المهانة والكآبة، وفقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة، فسأله المنصور عن شأنه، فأعلمه بقصته، فقال له: هلا أتيت إلينا بحدثان وقوع الأمر، فكنا نستظهر على الحيلة، فهل هديت لى الناحية التى أخذ الطائر إليها؟ قال: مر مشرقا على سمت هذا الجبل الذى يلى قصرك - يعنى الرملة، فدعا المنصور شرطيه الخاص به، فقال له: جئنى بمشيخة أهل الرملة - الساعة، فمضى وجاء بهم سريعا، فأمرهم بالبحث عمن غير حال الإقلال منهم - سريعا، وانتقل عن الإضاعة دون تدريج، فتناظروا فى ذلك، ثم قالوا: يا مولانا، ما نعلم إلا رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم، ويتناولون السبق بأقدامهم عجزا عن شراء دابة، فاتباع اليوم دابة، واكتسى هو وولده كسوة متوسطة، فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجر بالغدو إلى الباب، فحضر الرجل بعينه بين يدى المنصور، فاستنداه - والتاجر حاضر، وقال له: سبب ضاع منا وسقط إليك، ما فعلت به؟ قال: يا مولاي، وضرب بيده إلى حجرة سراويله، فأخرج الصرة بعينها، فصاح التاجر طربا، وكاد يطير فرحا، فقال له المنصور: صف لى حديثها، فقال: بينا أنا أعمل فى جنائى تحت نخلة، إذ سقطت أمامى، فأخذتها وراقنى منظرها، فقلت: إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار، فاحترزت بها ودعتنى فاقتى إلى أخذ عشرة مثاقيل عيونا كانت معها مصرورة، وقلت: أقل ما يكون فى كرم مولاي أن يسمح لى بها، فأعجب المنصور ما كان منه، وقال للتاجر: خذ صرتك وانظرها، واصدقنى عن عددها، ففعل، وقال: وحق رأسك يا مولاي ما ضاع منها شىء، سوى الدنانير التى ذكرها، وقد وهبتها له: فقال له المنصور: نحن أولى بذلك

منك، ولا ننغص عليك فرحك، ولولا جمعه بين الإصرار والإقرار، لكان ثوابه موفورا عليه، ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير - عوضا عن دنانيره، وللجنان بعشرة دنانير - ثوبا لتأنيه عن فساد ما وقع بيده وقال: لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث، لأوسعناه جزاء، قال: فأخذ التاجر فى الشاء على المنصور، وقد عاوده نشاطه، وقال: والله لأبئن فى الأقطار عظيم ملكك، ولأبين^(١) أنك تملك طير عملك، كما تملك إنسها، فلا تعتصم منك، ولا تؤذى جارك، فضحك المنصور وقال: اقصد فى قولك، يغفر الله لك، فعجب الناس من تلطف المنصور فى أمره، وحيلته فى تفريج كربته - انتهى .

ثم حكى^(٢) هذا المؤرخ من أخبار المنصور جملة، ثم وصف غزوته لمدينة شنت ياقب قاصية غليسية، وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس، وما يتصل بها من الأرض الكبيرة، وكانت كنيسة عندهم - بمنزلة الكعبة عندنا، فبها^(٣) يحلفون، وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها، وسزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقوب الحوارى، أحد الاثنى عشر، وكان أخصهم بعبسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وهم يسمونه أخاه للزومه إياه، إلى أن قال: وياقب بلسانهم يعقوب، وكان أسقفا بيت المقدس، فجعل يستقرئ الأرضين، داعيا لمن فيها، حتى انتهى إلى هذه القاصية، ثم عاد إلى أرض الشام، فمات بها وله مائة وعشرون سنة شمسية، فاحتمل أصحابه رمته، فدفنوه بهذه الكنيسة التى كانت أقصى أثره، ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام فى قصدها، ولا الوصول إليها، لصعوبة مدخلها، وخشونة مكانها، وبعد شقتها، فخرج المنصور إليها من قرطبة -

(١) هذا المثبت من البيان المغرب، والذي فى المطبوع: «ولا بين».

(٢) نفح الطيب ١/٤١٣، والبيان المغرب ٢/٢٩٤.

(٣) هذا المثبت من البيان المغرب، والذي فى المطبوع: «فيها».

غازيا بالصائفة يوم السبت لست بيقين من جمادى الأخيرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وهى غزوته الثامنة والأربعون، ودخل على مدينة قورية فلما وصل إلى مدينة غَلِيسِيَّة. وافاه عدد عظيم من القوامس^(١)، المتمسكين بالطاعة فى رجالهم، وعلى أتم احتفالهم، فصاروا فى عسكر المسلمين، وركبوا فى المغاورة سبيلهم، وقد كان المنصور تقدم فى إنشاء أسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر أبى دانس من ساحل غرب الأندلس، وجهزه برجاله البحرين، وصنوف المترجلين، وحمل الأقوات والأطعمة، والعدد والأسلحة، استظهارا على نفوذ العزيمة، إلى أن خرج بموضع يرتقال على نهر دويرة، فدخل فى النهر إلى المكان الذى عمل المنصور على العبور منه، فعقد هنالك من هذا الأسطول جسرا بقرب الحصن الذى هنالك، ووجه المنصور ما كان فيه من الميرة إلى الجند، فتوسعوا فى التزود منه إلى أرض العدو، ثم نهض يريد شَنْتَ ياقُوب، فقطع أرضين متباعدة الأقطار، وقطع بالعبور عدة أنهار كبار، وخلجان يمدّها البحر الأخضر، ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليلة من بلاد فطارش وما يتصل بها، ثم أفضى إلى جبل شامخ، شديد الوعر، لا مسلك فيه ولا طريق، لم يهتد الأدلاء إلى سواه، فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعه شعبه، وتسهيل مسالكه، فقطعه العسكر، وعبروا بعده وادى مَنِيَّة.

وانبسط^(٢) المسلمون بعد ذلك فى بسائط عريضة، وأرضين أريضة، وانتهت مَغِيرَتُهُمْ إلى دَيْرِ قَسْطَان، وبسيط بلنبو على البحر المحيط، وفتحوا حصن شَنْتَ بَلَايَه وغنموه وعبروا - سباحة - إلى جزيرة من البحر المحيط،

(١) هذا المثلث من البيان المغرب، والذى فى المطبوع: «القواميس».

(٢) نفح الطيب ٤١٥/١، والبيان المغرب ٢٩٥/٢.

لجأ إليها خلق عظيم من أهل تلك النواحي، فسبوا من فيها ممن لجأ إليها، وانتهى العسكر إلى جبل مراسية، المتصل مراكز جهاته بالبحر المحيط، فتخللوا أقطاره، واستخرجوا من كان فيه، وحازوا غنائمه، ثم أجاز المسلمون بعد هذا - خليج لورقي في معبرين، أرشد الأدلاء إليهما، ثم نهر ايله، ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة، كثيرة الفائدة، ثم انتهوا إلى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر تلو مشهد قبره - عند النصارى فى الفضل، يقصد نساكهم له من أقصى بلادهم، ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما، فغادره المسلمون قاعا، وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقب البائية، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان فوجدها المسلمون خالية من أهلها، فحاز المسلمون غنائمها، وهدموا مصانعها وأسوارها، وكنيستها، وعفوا آثارها، ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه، وكانت مصانعها بديعة، محكمة، فغودرت هشيما كأن لم تغن بالأمس، وانتسفت بعد ذلك سائر البسائط، وانتهت الجيوش إلى جزيرة شنت مانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط، وهى غاية لم يبلغها قبلهم مسلم، ولا وطئها لغير أهلها قدم، فلم يكن بعدها للخیل مجال، ولا وراءها انتقال، وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقوب، وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله، فجعل فى طريقه القصد على عمل برمند بزاردون، ليستقره عائنا ومفسدا، حتى وقع فى عمل القوامس المعاهدين الذين فى عسكره، فأمر بالكف عنها، ومر مجتازا حتى خرج إلى حصن مليقة من افتتاحه، فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على أقدارهم، وكساهم وكسا رجالهم، وصرفهم إلى بلادهم، وكتب بالفتح من مليقة، وكان مبلغ ما كساه فى غزاته هذه لملوك الروم ولمن حسن غناؤه من المسلمين، ألفين ومائتين وخمسا وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازى،

وإحدى وعشرين كساء من صوف البحر، وكسائين عنبريين، وأحد عشر سقلطونا، وخمس عشرة مريشات، وسبعة أثمان ديباج وثوبين ديباج رومى، وفروى فنك، ووافى جميع العسكر - قرطبة غانما، وعظمت النعمة والمنة على المسلمين، ولم يجد بشتت ياقب - إلا شيخا من الرهبان جالسا على القبر، فسأله عن مقامه، فقال: أونس يعقوب، فأمر بالكف عنه.

ثم قال هذا المؤرخ^(١) - بعد كلام، وحدث شُعْلَة قال: قلت للمنصور ليلة طال فيها سهره: قد أفرط مولانا فى السهر، وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم - وهو أعلم بما يحركه عدم النوم من علة العصب، فقال لى: يا شعلة، الملك لا ينام إذا نامت الرعية، ولو استوفيت نومى، لما كان فى دور هذا البلد العظيم عين نائمة.

وكان المنصور^(٢) يزرع فى كل سنة - ألف مدى من الشعير - قصيلا لدوابه الخاصة به، وكان إذا قدم من كل غزوة من غزواته، لا يحل عن نفسه حتى يدعوا صاحب الخيل، فيعلمه ما مات منها وما عاش، وصاحب الأبنية فيعلمه بما وهى من أسواره ومبانيه^(٣)، وقصوره ودوره، وكان له دخالة فى كل يوم اثنى عشر ألف رطل من اللحم، حاشا الصيد والطير والحيتان، وكان يصنع فى كل عام اثنى عشر ألف ترس عامرية لقصر الزاهرة والزهاء، وابتنى على طريق المباحاة والفخامة - مدينة الزاهرة، ذات القصور والمنتزهات المخترعة، كمنية السرور وغيرها من مناشئه البديعة، ثم قال هذا المؤرخ - بعد كلام - وعند فراغه من بناء الزاهرة، غزا غزوة، أبعد فيها الإيغال، وغال

(١) نفع الطيب ٤١٦/١، والبيان المغرب ٢/٢٩٨.

(٢) نفع الطيب ٥٨٤/١، والبيان المغرب ٢/٢٩٨.

(٣) هذا المثبت لدى ابن عذارى فى البيان المغرب الذى ينقل عنه المصنف، والذى فى المطبوع: «وصاحب الأبنية لما وهى من أسواره».

فيها من عظماء الروم من غال، وحل من أرضهم ما لم يطرق، وراع منهم ما لم يرع قط ولم يفرق، وصدر صدرا سما به على كل حسناء عقيلة، وجلّى به كل صفحة للحسن صقيلة، ودخل قرطبة دخولا لم يعهد، وشهد له فيها يوم لم يشهد، وكان ابن شهيد متخلفا عن هذه الغزوة لنقرس عداه عاتده، وحدها منتجعه ورائده، وابن شهيد هذا أحد حجاب الناصر، وله على ابن أبي عامر أيادي محكمة الأواصر، وكان كثيرا ما يتحفه، ويصله ويلطفه، فلما صدر المنصور من غزوته هذه نسي متاحفته، وأغفل ملاطفته، فكتب إليه ابن شهيد:

أنا شيخ والشيخ يهوى الصبايا يا لنفس تقيك صرف الرزايا^(١)
ورسول الإله أسهم في الفى لمن لم يجد فيه المطايا
فاجعلنى - فديت - أشكر معرو فك وابعث به عذاب الثنايا
فبعث^(٢) إليه بعقيلة من عقائل الروم يكنفها ثلاث جوار. كأنهن نجوم سوار، وكتب إليه:

قد بعثنا بها كشمس النهار فى ثلاث من المهـا أبكار
فاجتهد واثـد فإنك شيخ خفى الليل عن بياض النهار
صانك الله من كلالك فيها فمن العار كلة المسمار
فكتب إليه ابن شهيد^(٣):

قد فضضنا ختام ذاك السوار واصطبغنا من النجيع الجارى

(١) نفح الطيب ٥٨٥/١، والبيان المغرب ٣٠٠/٢.

(٢) نفح الطيب ٥٨٦/١، والبيان المغرب ٣٠٠/٢.

(٣) نفح الطيب ٥٨٦/١، والبيان المغرب ٣٠٠/٢.

ونعـمنا فى ظل أنعم ليل ولهونا بالبدر ثم الدرارى
وقضى الشيخ ما قضى بحسام ذى مضاء غضب الظبا بتار
فاصطنعه فليس يجزيك كفرا واتخذة سيفاً على الكفار
انتهى ما انتحينه من كلام هذا المؤرخ، وأظن أن بعضه من كلام الفتح
كفضية ابن شهيد هذه^(١)، فإنها لا تبعد عن مساقه - والله أعلم.

وأخبار المنصور بن أبى عامر، طبقت الأقطار، وطارت كل مطار،
وتعدادها تضيق عنه الأسفار، خصوصاً ما له على الكفار، ولذا كتب على
قبره^(٢):

آثاره تنبىك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تالله ما يأتى الزمان بمثله أبداً ولا يحمى الثغور سواه

وقد حكى صاحب «الزهرات المشورة فى الأخبار المأثورة» كثيراً من
محاسن المنصور بن أبى عامر، فمن ذلك قوله فى الزهرة الثامنة والعشرين ما
نصه:

حكى أبو العلى صاعد اللغوى قال: جمعت خرق الأكياس، والصرر
التي قبضت فيها صلات المنصور محمد بن أبى عامر، فقطعت لكافور الأسود
غلامى منها قميصاً كالمرقعة، وبكرت به معى إلى قصر المنصور، فاحتلت فى
تنشيطه حتى طابت نفسه، فقلت: يا مولانا، لعبدك حاجة، فقال: اذكرها،
قلت: وصول غلامى كافور إلى هنا، فقال: وعلى هذه الحال؟! فقلت: لا
أقع بسواه إلا بحضوره بين يديك، فقال: أدخلوه، فمثل قائماً بين يديه فى
مرقعته، وهو كالنخلة إشرافاً، فقال: قد حضر - وإنه لباذئ الهيئة، فمالك

(١) الأخبار التى سقت فى الصفحات السابقة موجودة بنصها لدى ابن عذارى فى البيان

المغرب كما أشرت إلى ذلك.

(٢) البيان المغرب ٣٠١/٢.

أضعته؟ فقلت: يا مولانا، هناك الفائدة، أعلم يا مولاي أنك وهبت لى اليوم ملء جلد كافور مالا، فتهلل وقال: لله درك من شاكر مستنبط لغوامض معانى الشكر، وأمر لى بمال واسع وكسوة، وكسا كافوراً أحسن كسوة.

وفى التاسعة والعشرين ما نصه: تقدم إلى الحاجب المنصور بن أبى عامر وانزمار ابن أبى بكر البرزالى. أحد جند المغاربة - وقد جلس للعرض والتميز - والميدان غاص بالناس، فقال له بكلام يضحك الثكلى: يا مولاي، ما لى ولك، أسكنى، فإنى فى الفحص، فقال: وما ذلك يا وانزمار؟ وأين دارك الواسعة الأقطار؟ فقال: أخرجتنى - والله - نعمتك، أعطنى من الضياع ما انصب على منها من الأطعمة ما ملأ بيوتى وأخرجنى عنها، وأنا بربرى مجوع. حديث العهد بالبؤس، أترى لى أن أبعد القمح عنى، ليس ذاك من رأى، فتطلق المنصور، وقال: لله درك من فذ عيى، لعلك فى شكر النعمة، أبلغ عندنا، وأخذ بقلوبنا، من كلام كل أشدق متزید، وبلغ مفتن، وأقبل على من حوله من أهل الأندلس، فقال: يا أصحابنا، كذا فلتشكروا الأيادى، وتستديموا النعم، لا ما أنتم عليه من الجحد اللازم، والتشكى المبرح، وأمر له بأفضل المنازل الخالية^(١).

وفى الموفية ثلاثين ما نصه، أصبح المنصور بن أبى عامر صبيحة أحد، وكان يوم راحة الخدمة الذين أعفوا فيه عن قصد الخدمة فى مطر وابل غب أيام مثله، فقال: هذا يوم لا عهد بمثله، ولا حيلة للمواطنين لقصدنا فى مكابדתه، فليت شعرى، هل شذ أحد منهم عن التقدير، فأغرب فى البكور، أخرج وتأمل - يقوله - لحاجبه - فخرج وعاد إليه - ضاحكا وقال: يا

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٤١٧.

مولاي، على الباب ثلاثة رهط من البرابرة، أبو الناس بن صالح، واثنان معه، وهم بحال من البلل، إنما توصف بالمشاهدة، فقال: أوصلهم إلى وعجل، فدخلوا عليه في حال الملاح بللا ونداوة، فضحك إليهم وأدنى مجلسهم وقال: خبروني كيف جئتم، وعلى أي حال وصلتكم - وقد استكان كل ذي روح في كنه، ولاذ كل طائر بوكره، فقال له أبو الناس بكلامه: يا مولانا، ليس كل التجار قعد عن سوقه، وإذا عذر التجار على طلب الربح بالفلوس، فنحن أعذر بإدراكها بالبدر، ومن غير رءوس أموال، وهم يتناوبون الأسواق على أقدامهم ويذيلون في قصدها ثيابهم، ونحن نأتيك على خيلك، ونذيل على صهواتها ملابسك، ونجعل الفضل في قصدك مضمونا، إذا جعله أولئك طمعا ورجاء، فترى لنا أن نجلس عن سوقنا هذه؟ فضحك محمد بن أبي عامر، ودعا بالكسي والصلات، فرفعت لهم وانصرفوا - مسرورين بغدوتهم^(١).

وفي الزهرة الرابعة والأربعين ما نصه: كان بقرطبة على عهد الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر فتى من أهل الأدب قد رثت حاله في الطلب، فتعلق بكتاب العمل، واختلف إلى الخزانة مدة حتى قلد بعض الأعمال، فاستهلك كثيرا من المال، فلما ضم إلى الحساب، أبرز عليه ثلاث آلاف دينار، فرجع خبره إلى المنصور، فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه. ولزم الإقرار بما برز عليه، قال له: يا فاسق، ما الذي جرأك على مال السلطان تنتهبه؟ قال قضاء غلب الرأي وفقر أفسد الأمانة، قال: والله لأجعلنك نكالا لغيرك، ليحضر كبل وحداد، فأحضرا، فكبّل الفتى وقال: احمלוه إلى السجن، وأمر الضابط بامتحانه، والشدة عليه، فلما قام، أنشأ يقول:

(١) نفح الطيب ٤١٧/١.

أواه أواه وكــــم ذا أرى أكثر من تذكار أواه
ما لامرئ حول ولا قوة الحول والقوة لله
فقال المنصور: ردوه، فلما رد، قال: أتمثلت أم قلت؟ قال: بل قلت:
فقال: حلوا عنه كبله، فلما حل عنه، أنشأ يقول:

أما ترى عفو أبى عامر لا بد أن تتبعه - منه
كذلك الله إذا عفا عن عبده أدخله - الجنة
قال: فأمر بإطلاقه، وسوغه ذلك المال، وأبرأه من التبعة فيه^(١).

وفى الخامسة والأربعين ما نصه: عرض على المنصور بن أبى عامر اسم
أحد خدامه فى جملة من طال سجنه، وكان شديد الحقد عليه، فوقع على
اسمه بأن لا سبيل إلى إطلاقه، حتى يلحق بأمه الهاوية، وعرف الرجل
بتوقيعه، فاغتم وأجهد نفسه فى الدعاء والمناجاة، وأرق المنصور بن أبى عامر
من أثر ذلك، واستدعى النوم، فلم يقدر عليه، وكان يأتيه عند تنويمه آت
كريه الشخص عنيف الأخذ، يأمره بإطلاق الرجل، ويتوعده على حبسه،
فاستدفع شأنه مرارا، إلى أن علم أنه نذير من ربه، فانقاد لأمره، ودعا
بالدواة فى مرقده، فكتب بإطلاقه، وقال فى كتابه: هذا طليق الله - على
رغم أنف ابن أبى عامر، وتحديث الناس زمانا بما كان منه^(٢).

وفى الثامنة والأربعين ما نصه: انتهت هيبة المنصور بن أبى عامر
وضبطه للجند، واستخدام ذكور الرجال، وقوام الملك - إلى غاية لم يصلها

(١) نفح الطيب ٤١٨/١.

(٢) نفح الطيب ٤١٩/١.

ملك قبله، فكانت مواقفهم فى الميدان على احتفاله مثلاً فى الإطراق، حتى إن الخيل لتمثل إطراق فرسانها، فلا تكثر الصهيل والحممة، ولقد وقعت عينه على بارقة سيف قد سله بعض الجند بأقصى الميدان لهزل أو جد، بحيث ظن أن لحظ المنصور لا يناله، فقال: على بشاهر السيف، فمثل بين يديه لوقته، فقال: ما حملك على أن شهرت سيفك فى مكان لا يشهر فيه إل عن إذن؟ فقال: إني أشرت به على صاحبي - مغمداً، فذلق من غمده، فقال: إن مثل هذا لا يسوغ بالدعوى، وأمر به فضربت عنقه بسيفه، وطيف برأسه، ونودى بذنبه^(١).

انتهى ما تعلق به الغرض من أخبار المنصور، وأنشدنى بعض الكتاب من أهل قسطنطينة - المحروسة بالله - لبعض الأقدمين قوله:

حدثنا عرف نسيم الصبا عن بان نجد عن ربي حاجر
عن سمرات الحى عن عالج عن سر ذلك الميسم العاطر
قالوا سمعنا طائراً بالحمى ينشد بيت ابن أبى عامر
ما أقبح السلوان من عاشق وما ألد الوصل من هاجر!
وأظنه ابن أبى عامر الذكور، وأنه قال ذلك البيت، فوطأ له هذا الشاعر
بالثلاثة الأبيات - والله أعلم.

ثم بعد مدة رأيت فى عدة مصنفات رواية البيت هكذا:

(ينشد بيتا لبنى عامر) - فالله أعلم.

(١) نفح الطيب ٤١٩/١.

ورأيت فى كتاب الزهرات المنشورة المذكورة آنفاً، من غير أخبار ابن أبى عامر . . فى الزهرة الرابعة والستين ما نصه: لما قبض على الوزير أبى جعفر ابن عبد الملك بن سعيد العنسى، وثقف بمالقة، دخل إليه ابن عمه، ووصل إلى الاجتماع به - ريثما استؤذن السيد أبو سعيد ابن الخليفة عبد المؤمن فى أمره، قال: فدمعت عيناي حين رأيته مكبولا، فقال: أعلى تبكى - بعدما بلغت من الدنيا أطايب لذتها: فأكلت صدور الدجاج، وشربت فى الزجاج، ولبست الديباج، وتمتعت بالسرارى والأزواج، واستعملت من الشمع السراج الوهاج، وركبت كل هملاج، وهأنا فى يد الحجاج، منتظر محنة الحلاج، قادم على غافر لا يحتاج، إلى اعتذار ولا احتجاج، قال: فقلت: أفلا يؤسف على من ينطق بمثل هذا الكلام، ثم يفقد، وقمت عنه فكان آخر العهد به . انتهى .

ولنعد إلى ما كنا فيه من سرد بعض كلام الفتح فنقول: قال فى الأوراق التى رأيت من المطمح - بعد ترجمة المعتصم بن صمادح، وتحليته إياه بعين ماله فى القلائد، ما نصه^(١): ابنه عز الدولة أبو مروان عبد الله - رحمه الله، فتى الراح، المعافر لدنانها، المهتصر لأغصان الفتوة وأفنانها، المهجر لفلاة الظباء والآرام، المشهر فى باب الصباية والغرام^(٢)، نشأ فى حجر أبيه نديم قهوة، ومديم صبوة، وخديم شهوة، لا يريم كأسا، ولا يروم إلا اقتضى انتكاسا، ما شهد قتلا ولا قتالا، ولا تقلد صارما إلا مختالا، قد أمن منه جنان الجبان، وعدت له غصون البان، وما زال مرتضعا لأخلاف البطالة، مقتطعا ما شاء من إطالة، متوغلا فى شعاب الفتاك، متغلغلا فى طريق الانتهاك - إلى أن وجهه أبوه إلى أمير المسلمين - سفيرا عندما بدت له وجوه

(١) نفح الطيب ٧ / ٤٠ .

(٢) هذا الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «الغرم» .

الفتنة تسفر، ومعاهد الهدنة تقفر، مع أكامل أصحابهم نقصانه، وذوى أديان جعلهم خلصانه، يسمعون بواذر بذاذته، وينظرون مناكر لذاذته، فألت سفرته إلى الاعتقال، وقصرت نخوته ما بين قيد وعقال، فجاء كالمهر لا يعرف لجاما، وصار حبيس قوم لا يألونه استعجاما، وحين شالت نعمته، وسالت عليه ظلامته، كتب إلى أبيه:

أبعد السنا والمعالي خمول وبعد ركوب المذاكي كبول
ومن بعد ما كنت حرا عزيزا أنا اليوم عبد أسير ذليل
حللت رسولا بغرناطة فحل بها في خطب جليل
وثقت إذ جئتها مرسلا وقلبي كان يعز الرسول
فقدت ألمرية أكرم بها فما للوصول إليها سبيل^(١)
فراجعه أبوه بقطعة، منها:

عزيز على ونوحى دليل على ما أقاسى ودمعى يسيل
وقطعت البيض أغمادها وشقت بنود وناحت طبول
لئن كنت يعقوب فى حزنه ويوسف أنت فصير جميل^(٢)
ولم يزل يتحيل فى تخلصه، وأخذه من يد مقتنصه، فسرق - وحراسه منه بمكان السلك من النحر، وطرق به على ثبج البحر، فوافى ألمرية، وقد أخذ البحث عليه آفاق البرية، فهنى المعتصم بخلاصه، وبقي مستقرا

(١) نفح الطيب ٤١/٧ .

(٢) نفح الطيب ٤١/٧ .

بعراضه، إلى أن أخلوها، ومضوا لمطية ما نووها، فنجأ أخوه إلى حيث ذكرنا من بلاد الناصر، ولجأ هو إلى أحد المرابطين لأذمة كانت بينهما وأواصر، وأقام معه سمير لهوه - وأمير سهوه - إلى أن انقرض أمده، وطواه سروره لأكمده، فلم ير إلا خالعا لعذاره، طالعا من ثياب اغتراره، غير مكترث باتضاعه، ولا منحرف عن ارتشاف الغى وارتضاعه، وبدا منه فى هذه الحال ندى كثر به السحاب، وظاهر بسببه الأصحاب، وتخدم الأوطار، وتقدم لذوى الرتب فيها والأخطار، تقدما حسن من ذكره^(١)، وأولعا الألسن بشكره، فارتفع عنه الكدح، وشفع له فى الذم ذلك المدح، وكان نظمه بديع الوصف، رفيع الرصف، وقد أثبت له ما يشهد بإجادته وإحسانه، شهادة الروض بوجود نيسانه^(٢).

أخبرنى^(٣) ابن القطان أنه سائر الأمير يحيى بن أبى بكر إلى طليطلة فى جيوش فاضت سيلا، وخاضت المطايا قتامها ليلا، وكان ملكا لم يعقد على مثله لواء، ولم يحتو على شبهه حواء، جمال محيا، وكمال عليا، وحسن شيم، وبعد همم، أغنى العفاة، وأحيا الرفاة، وألغى الأجواد، وأنسى كعب ابن مامة وابن أبى داؤد، فلما شارف طليطلة وكشفها، واشتف بلالتها وارتشفها، وضرب بكنفها مضاربه، وأجال بساحتها زنجه وأعاربه، سقط أحد ألويته عن يد حامله، وانكسر عند عامله، فطائفة تفاءلت، وطائفة تطيرت، وفرقة ابتهجت، وأخرى تغيرت، فقال:

(١) فى المطبوع: «والأخطار، حسنا من ذكره» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ٤١/٧.

(٣) نفح الطيب ٤٢/٧.

لم ينكسر عود اللواء لطيرة يخشى عليك بها وأن تتأولا
لكن تحقق أنه يندق فى نحر العدو لدى الوغى فتعجلا^(١)
وأخبرنى^(٢) أخوه رفيع الدولة أن ابن اللبانة، كتب إليه - والخلع قد
نضا لبوسه، وقصر بوسه، وكدر صفاءه، وغدر وفاءه، وطوى ميدان جوده،
وأذوى أفنان وجوده:

يا ذا الذى هز أمداحى بحيلته وعزه أن يهز المجد والكرما
واديق لا زرع فيه اليوم تبذله فخذ عليه لأيام المنى سلما
فدعته دواعى الندى، وأولعته بالجد فى ذلك المدى، فتحيل فى بر
طبعه، وكتب معه:

المجد يخجل من نقدك فى زمن ثناه عن واجب البر الذى علما
فدونك النزر من مصف مودته حتى يوفيك أيام المنى سلما^(٣)
ابنه الثانى رفيع الدولة أبو يحيى بن المعتصم^(٤) من بيت إمارة. وإلى
السعد طوافه بها واعتماره، عمرت أنديته، ونشرت به رايات العز وألويته،
إلى أن خوى كوكبهم، وهوى مرقبهم، ففرقوا أيادى سبا، وفرقوا من وقع
الأسنة والظبى، وفارقوا أرضا كأرض غسان، ووافقوا أياما كيوم أهل اليمامة
مع حسان، بعد ما خامرت النفوس مكارمهم مخامرة الرحيق، وأمهم الناس
من كل مكان سحيق، وانتجعوا انتجاع الأنواء، واستطعموا فى المحل اللأواء،
وصالوا بالدهر وسطوا، وبين النهى والأمر فيه خطوا، ورفيع الدولة هذا فخر

(١) نفح الطيب ٤٢/٧.

(٢) نفح الطيب ٤٢/٧.

(٣) نفح الطيب ٤٢/٧.

(٤) نفح الطيب ٤٢/٧.

ذلك الصباح، وضوء ذلك المصباح، وغصن تلك الدوحة، ونسيم تلك
النفحة، لم يتمهن - والدهر قد بذله، ولا ترك الانتصار - والأمر قد خذله،
فالتحف بالصون وارتدى، وراح على الانقباض واغتدى، فما تلقاه إلا سالكا
جددا، ولا تراه إلا لابسا سؤددا، وله أدب كالروض المجود - إذا أزهر،
ونظم كزهر التهائم والنجود، بل كالصبح إذا أسفر، أوقفه على النسب
وصرفه إلى المحبوبة والحيب، فمن ذلك قوله^(١):

مالي وللبدن لم يسمع بزورته لعله ترك الإجمال أو جهرا
إن كان ذاك لذب ما شعرت به فأكرم الناس من يعفو إذا قدرا
وقوله أيضا^(٢):

يا عابد الرحمن كم ليلة أرقنتني وجدا ولم تشعر
إذ كنت كالغصن ثنته الصبا وصحن ذاك الخد لم يشعر
وقوله أيضا^(٣):

وأهيف لا يلوى على عتب عاتب ويقضى علينا بالظنون الكواذب
يحكم فينا أمره فنطيعه ونحسب منه الحكم ضربة لازب
وقوله أيضا^(٤):

وعلقته حلو الشمائل ما جنّا خنث الكلام مرّح الأعطاف
ما زلت أنصفه وأوجب حقه لكنه يأبى من الإنصاف

(١) نفح الطيب ٤٣/٧ .

(٢) نفح الطيب ٤٤/٧ .

(٣) نفح الطيب ٤٤/٧ .

(٤) نفح الطيب ٤٤/٧ .

وقوله أيضا:

حبيب متى ينأى عن القلب شخصه يكاد فؤادى أن يطير من البين
ويسكن ما بين الضلوع إذا بدا كأن على قلبى ثنائم من عين^(١)
وقوله أيضا:

أفدى أبا عمرو وإن كان جانيا على ذنوبا لا تعدد بالعتب
فما كان ذاك الود إلا كبارق أضاء لعينى ثم أظلم للقلب^(٢)
وله - وقد بلغه موتى، وتحقق عنده فوتى:

مثنى الوزارة قد أودى فما فعلت تلك المحابر والأقلام والطرس
ما كنت أحسب يوما قبل ميتته أن البلاغة والآداب تختلس^(٣)
واستأذن ليلة على أحد الأمراء - وأنا عنده فى أسنى موضع، وأبهى
مطلع، وجوانب جنده بين يدى محتله، وسحائب رفده على منهله، وكان
أجمل من مقل، وأكمل من من المهد إلى سرير الملك قد نقل^(٤).

انتهى ما ألفيته فى المطمح من هذا الموضع، وفى موضع آخر ما نصه:
أبو عامر ابن عقال، كان له بينى قاسم تعلق، وفى سماء دولتهم تألق،
فلما خوت نجومهم، وعفت رسومهم، انحط عن ذلك الخصوص، وسقط
سقوط الطائر المقصوص، وتصرف بين وجود وعدم، وتحرف قاعدا حيناً

(١) نفح الطيب ٤٤/٧ .

(٢) نفح الطيب ٤٤/٧ .

(٣) نفح الطيب ٤٥/٧ .

(٤) نفح الطيب ٤٥/٧ .

وحينا على قدم، وفي خلال حالیه، وأثناء انتحاله، لم يدع حظه من الحبيب، ولا ثنى لحظة عن الغزال الريب، ولم يزل يطير ويقع، والدهر يخرق حاله ويرقع، إلى أن أرقاه الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين - رحمه الله - أعلى ربوة، وزاده أبهى حظوة: فأدرك عنده رتبة أعلام التحبير والإنشاء، وترك الدهر قلق الحشا، وتسئم منزلة لا يتسمنها إلا من تطهر من درنه، وجمع إحسانه في ميدان حرنه، والحظوظ أقسام لا تسام، والدنيا إنارة وإعتام^(١).

ولو لم يعمل إلا ذو محل تعالی الجيش وانحط القتام^(٢)
وقد أثبت عنه بعض ما ألفيته، والذي أخذته مباين لما أبقيته، فمن ذلك:

يا ويح أجسام الأنا	م لما تطيق من الأذى
خلقت لتقوى بال غذا	ء وسقمها ذاك غذا
وتنال أيام السلا	مة بالحياة تلذذا
فإذا انقضى زمن الصبا	ورمى المشيب فأنفذا
وجد السقام إلى المفا	صل والجوانح منفا
ويقول مهما يعط شي	ئنا ناولوني غير ذا ^(٣)

(١) نفح الطيب ٤٦/٧.

(٢) نفح الطيب ٤٧/٧.

(٣) نفح الطيب ٤٧/٧.

وحذا فى هذه القصيدة حذو الصابى فى قوله :

وجع المفاصل وهو أي سرما لقيت من الأذى
ردى الذى استحسنه والناس من حظى كذا
والعمر مثل الكاس ير سب فى أواخرها القذى^(١)

وله يتعذر من زيارة اعتمدها، ومواصلة اعتقدها: فعاقته حوادث لوته .
وعدته عن ذلك وثنته :

بينما كنت راجيا للقاءه والتشفى بالبشر من تلقائه
وترقيت فى سماء نزاعى قمر الأنس طالعا من سمائه
إذ دهانى اعتراض خطب ثنائى عن غمام يشفى الغليل بمائه
فتدهلت وانزويت حياء منه والعذر واضح لسناؤه^(٢)

وله فصل كتب به عن الأمير إبراهيم يصف إجازة أمير المسلمين البحر
سنة خمس وخمسمائة - وفى الساعة الثانية من يوم الجمعة كان جوازه - أيده
الله - من مرسى جزيرة طريف على بحر ساكن قد ذل بعد استصعابه، وسهل
بعد أن رأى الشامخ من هضابه، وصار حيه ميتا، وهذره صمتا، وجباله لا
ترى فيها عوجا ولا أمتا، وضعف تعاطيه، وعقد السلم بين موجه وشاطئه،
فعبر آمنا من لهواته، متملكا لصهواته، على جواد يقطع الخرق سبحا، ويكاد
يسبق البرق لمحا، لم يحمل لجاما ولا سراجا، ولا عهد غير اللجة الخضراء
مرجا، عنانه فى رجله، وهذب العين يحكى بعض شكله، فله هو من

(١) نفح الطيب ٤٧/٧ .

(٢) نفح الطيب ٤٨/٧ .

جواد، له جسم وليس له فؤاد، يخرق الهواء ولا يرهبه، ويركض الماء ولا يشربه^(١).

أبو القاسم^(٢) المنيشى أحد أنشاء حضرة إشبيلية المقلين، الناهضين بأعباء الضرائر المستقلين، لم يعيشوا لكل ضوء ويتتجع مصاب كل نوء، فيوما يخصب، ويوما يجذب، وآونة يفرح. وأخرى ينتدب - إلى أن صدقت مخائله، فرمقت بخوته ونخائله، وأتى من العجب، بمنسدل الحجب، ومن الأشر، لم يأت من بشر، وما تصرف إلا فى أنذل الأعمال، ولا تعرف إلى بأخون العمال، لم يفرع ربوة ظهور، ولم يقرع باب رجل مشهور، وله أدب ولسن، ومذهب فيهما يستحسن، لكنه نكب عن المقطع الجزل، وذهب مذهب الهزل، إلا فى النادر فرجما جد، ثم أخلق منه ما استجد، وعاد إلى ديدنه، عودة أبى عباد إلى واواته ومدنه، وأخذ فى ذلك الغرض وليس شرط كتابى بذاءه، ولا أن يقف حذاءه، وقد أثبت له ما هو عندى نافق، ولغرض كتابى موافق، فمن ذلك قوله^(٣):

يا روضة باتت الأنداء تخدمها	أتى النسيم وهذا أول السحر
إن كان قدك غصنا فالثراء به	هى الكمائم قد زرت على الزهر
إربأ بخديك عن ورد وعن زهر	وأغن بقرطيك عن شمس وعن قمر
يا قاتل الله لحظى كم شقيت به	من حيث كان نعيم الناس بالنظر

(١) نفح الطيب ٤٨/٧ .

(٢) نفح الطيب ٥٣/٧ .

(٣) نفح الطيب ٥٤/٧ .

وله من رثاء فى والدتى^(١) - رحمة الله عليها:

يا ناصحى غير مفتات ولى شجن على النصائح والنصاح مفتات
لا أستجيب - ولو ناديت من كذب قد وقذتنى تعلات وعلات
إن كان رأيك فى برى وتكرمتى بحيث قد ظهرت منه علامات
لا ترضى لى غير شجو لا أفارقه فذاك أختاره والناس أشتات
ومنها^(٢):

ياذا الوزارة من مثنى وواحدة لله ما اصطنعت منك الوزارات
لله منك أبا نصر أخو جلد إذا ألت ملومات مهمات
أستودع الله نورا ضمه كفن كما توارى بدور التم هالات
قضت وليت شبابى كان موضعها هيهات لو قضيت تلك اللبانات
مضت ولما يقم من دونها أحد هلا وقد أعذرت فيها المروءات
وله يصف زرزورا^(٣):

أمنبر ذاك أم قضيب بفرعه مصقع خطيب
يختال فى بردتى شباب لم يتوضح بها مشيب
كأنما ضخمت عليه أبراده مسكة وطيب
أخرس لكنه فصيح أبله لكنه لبـيب

(١) نفح الطيب ٥٤ / ٧ .

(٢) نفح الطيب ٥٤ / ٧ .

(٣) نفح الطيب ٥٥ / ٧ .

جهم على أنه وسيم صعب على أنه أريب
أبو الحسن البرقي^(١) بلنسى الدار، نفيسى المقدار، ما سمعت له بشرف،
ولا أعلمت له بسلف، ولا اطلعت منه على غير سرف، ورد إشبيلية سنة
تسع وتسعين، واتصل بابن زهر، فناهيك من حظ فى أكنافه جال، ومن لحظ
فيما أرادته أجال، ومن أمل استوفر، ومن وجه جاه له أسفر، سلك به ساحة
الرغائب، وتملك بسببه إباحة الحاضر والغائب، وقال فما نبذت مقالته، وأقال
فما قيدت إقالته، وكان حلوا المجالسة، مجلو المؤانسة، ذا شنب وافر،
ومذهب فى المساهمة سافر، إلا أنه كان كلفا بالفتيان، معنى بهم فى كل
الأحيان، ونيف على السبعين - وهو برداء الصبوة مرتد، وبعتها مقتد، مع
أدب زهرته ترف، وكأنه بحر والألباب منه تغترف، وقد أبت له بعض ما
وجدت له فى الغلمان، وأنشدت له فى ذلك الزمان، فمن ذلك قوله^(٢):

إن ذكرت العقيق هاجك شوق رب شوق يهيجه الادكار
يا خليلي حدثانى عن الركب سحيرا أننجدوا أم أغاروا
شغلونا عن الوداع وولوا ما عليهم لو ودعوا ثم ساروا
أنا أهواهم على كل حال عدلوا فى هواهم أم جاروا

وعلق بإشبيلية فتى يعرف بابن المكر، ومات من حبه طريحا بين أيدي
الوساوس والفكر، لا يمشى إلا صبا، ولا يفشى إلا غراما وحباً، وما زال
يقاسى لوعته، مقاساة يناجى بها صرعته، حتى اكتسى خده بالعدار، وامحت
عنه مثل بهجة آذار، فسلا من كلفه، وتصدى ذلك لمواصلته بصلفة، فقال^(٣):

(١) نفح الطيب ٥٥/٧.

(٢) نفح الطيب ٥٦/٧.

(٣) نفح الطيب ٥٦/٧.

الآن لما صـوحت وجناته شوكا وأصحت سلوة العشاق
واستوحشت منك المحاسن واكتست أنوار وجهك واهن الأخلاق
أمسيت تبذل في الوصال تصنعا خلق اللئيم وشيمة المذاق
هلا وصلت إذ الشمائل قهوة وإذا المحيا روضة الأحداق
يا كم أطلت غرام قلب موجع كم قد ألب إليك بالأشواق
ما كنت إلا البدر ليلة تمه حتى قضت لك ليلة بمحاق
لاح العذرا فقلت وجد نازح إن ابن داية مؤذن بفراق
وله فيه - مناقضا - لذلك الغرض، معارضا للوعة سلوه الذى كان
عرض (١):

يلومون فى ظبى تزايد حسنه بخطين خطأ لوعتى وغراميا
وقد كنت أهوى خده وهو عاطل فكيف وقد أضحى لعينى حاليا
وله أيضا فى مثله (٢):

أجيل الطرف فى خد نضير يردد ناظرى نظرى إليه
إذا رمدت بحمرته جفونى شفاها منه إثمدا عارضيه
أبو الحسن على بن جودى (٣). برز فى الفهم، وأحرز منه أوفر سهم،
وواخى بنفس فى المعارف زكية، وعانى العلوم بقريحة ذكية، وله أدب واسع
مداه، يانع كالروض بلله نداه، ونظم أرق من دمع العانى، ولطيف المعانى،

(١) نفح الطيب ٥٦/٧.

(٢) نفح الطيب ٥٧/٧.

(٣) نفح الطيب ٥٧/٧.

وأعقب من نفس الخمائل، فى أكف الصبا والشمائل، ونثر كالزهر المطول، أو السلك المحلول، إلا أنه سها فأسرف، وزها بما لا يعرف، وتصدى إلى الدين بالافتراء، ولم يراقب الله فى ذلك الاجترأ، واشتهرت عنه فى ذلك أقوال سدد إلى الملة نصالها، وأبدى بها ضلالها، فعظمت به المحنة، وكمنت له فى كل نفس إحنة، وما زال يتدرج فيها ويتنقل، حتى عثر وما كاد يستقل، فمر لا يلوى على تلك النواحي، وفر لا ينثنى إلا إلى لوائم ولواحي، وما زال يركب الأهوال ويخوضها، ويذل النفس بها ويروضها، حتى أسمحت ببعض الإسماح، وكفت عن ذلك الجماح، فاستقر عند أبى مالك فأواه، ومهد له مثواه، وجعله فى جملة من اختص من المبطلين، واستخلص من المعطلين، فكثيرا ما يصطف فيهم، ولا يدرى أيدخرهم أم يقتنيهم، وقد أثبت له ما يبهر سامعا، ويظهر برقًا لامعا، فمن ذلك قوله^(١):

أحن إلى ريح الشمال فإنها	تذكرنا نجدا وما ذكرنا نجدا
تمر على ربع أقام به الهوى	وبدل من أهليه جائمة ربا
فيا ليت شعري هلا تقضى لبانة	فأرتشف اللميا واعتنق القدا
خليلى لا والله ما أحمل الهوى	وإن كنت فى غير الهوى رجلا جلدا

وقوله أيضا^(٢):

سل الركب عن نجد فإن تحية	لساكن نجد قد تحملها الركب
وإلا فما بال المطى على الوجى	خفافا وما للريح مرجعها رطب

(١) نفح الطيب ٥٧/٧ .

(٢) نفح الطيب ٥٨/٧ .

ومن قوله أيضا^(١):

إذا ارتحلت غربية فاعرضا لها	فبالغرب من نهوى له البلد الغربا
لقد ساءنا أنا بعيده وأننا	بأرضين شتى لا مزارا ولا قربى
يفجعنا إما بعاد مبرح	وإما أمور باعثات لنا كربا
ظعنا على حكم الليالى وخطبها	فيا ليت لم ندر الليالى ولا الخطبا
وكنت أرجى الدهر بعد الذى مضى	ديارا وقربا والأصادق والصحبا
أحقا يسير الركب لم ترتحل بنا	إليك ولم تحدا الحداة لنا ركبا

وقوله أيضا^(٢):

سقى دارك اللاتى ببطن محصب	مشاكيل من وفد الغمام المرنح
ألم تعلمى يا فتنة القلب أننى	تطارحت من حبى لكم كل مطرعى
إذا نعبت غربان دار وجدتنى	وشوقى مقيم بين ناء ونزح

وله أيضا^(٣):

ألا خبر وللبلوى ^(٤) ضروب	وفيك لكل مشتاق حبيب
حباك الله بالنعى فنونا	وجر لكم مع النعمى خطوب
متى تقضى بخسفتك الليالى	وتعصف فيكم ريح هبوب
فإنكم تجرون المنايا	وتعمر من مجانيكم قلوب

(١) نفح الطيب ٥٨/٧.

(٢) نفح الطيب ٥٩/٧.

(٣) نفح الطيب ٥٩/٧.

(٤) فى المطبوع: «ألا يا خبر» والمثبت رواية نفح الطيب.

انتهى ما وجدت فى هذه الأوراق من مطمح الأنفس ، وقد كنت على شك فى ذلك ، فحين كتبتها تحققت أنها من كلام الفتح بلا ريب ، ولم أرد - علم الله - بجلبها هزلا جرى أثناءها ، ولكن الكلام جر إليه واتصل بعضه ببعض ، وأما نظم الفتح فلم يكن فى طبقة نثره ، بل كان منحطاً عنه ، ولذلك قال ابن الخطيب وغير واحد إن شعره وسط .

قال فى الإحاطة : ومن شعره قوله - وثبت فى قلائده يخاطب أبا يحيى ابن الحاج^(١) :

أَكْعَبَ عَلِيَاءٍ وَهَضْبَةَ سُوْدَدٍ^(٢) - انتهى .

وهذه الأبيات ذكرها فى القلائد - فى ترجمة ذى الوزارتين ابن أبى الخصال ، ولنورد تلك الترجمة بجمليتها تماماً للفائدة ، ونصها^(٣) : ذو الوزارتين الكاتب أبو عبد الله بن أبى الخصال - أعزه الله - هو وإن كان خامل المنشأ نازله . لم ينزله المجد منازل ، ولا فرع للعلاء هضاباً ، ولا ارتشف للسناء رضاباً ، فقد تميز بنفسه ، وتحيز من جنسه ، وظهر بذاته ، وفخر بأدواته ، والذى ألحفه بالمجد ، وأوقفه بالمكان النجد ، ذكاء طبع عليه طبعه ، ونجم فى تربة النباهة غربه ونبعه ، وتعلق بأبى يحيى بن محمد بن الحاج - وهو خامل الذكر ، عاطل الفكر ، فملك قياد مأموله ، وهب من مرقد خموله ، وقدح استعماله إياه زناد ذكائه ، وأبدى شعاع ذكائه ، ولم يزل عاثراً معه ومستقلاً ، ومثرياً حيناً وحيناً مقللاً - إلى أن تورطوا فى تلك الفتنة التى ألقحوا حائلها ،

(١) تحرف فى المطبوع إلى : «الحجاج» وصوابه من قلائد العقيان .

(٢) قلائد العقيان ، ص ٥٣٠ .

(٣) قلائد العقيان ، ص ٥١٨ .

وما لمحوها مخايلها، وطمعوا أن يغتالوا من أمير المسلمين، وناصر الدين - ملكا معصوما، وأبرموا من كيدهم ما غدا بيد القدر مفصوما، وفي أثناء بغيهم، وخلال جرمهم الويل وسعيهم، كانت ترد عليهم من قبله - أيده الله - كتب تحل ما ربطوه، وتروعههم مما تأبطوه، فلم يكن لهم بد من إدنائه، لحسن مراجعته عنهم وغنائه، فورد عليهم ليلة كتاب راعهم، وأنسأهم جلادهم وقراهم، وهم بمجلس أنس فصحوا من حمياه، ومحووا منه عبق الأنس ورياه: فاسدعاه في ذلك الحين للمراجعة عن فصوله، والمعارضة لفروعه وأصوله، فأبان عن الغرض، وخلص جوهره من كل عرض، وأبدع في إحكامه، وبرع في قضايا وأحكامه، فحمل أبا يحيى بن محمد استحسان ما كتبه، إن خططه للحين ولقبه، والمدام لرأيه الفائل مالكة، وبعقله في طرق الخبال سالكة، فلم يعمل فيها فكرا، ولم يتأمل أعرفا أتى أم نكرا، فجرت عليه لقبا، وأعلته من الاشتهار مرقبا، وصار مرتسما في العلية، متسما بتلك الحلبة، وما زالت الدول تستدنيه نائبا، وتنهيه دانيا، وما أجعله مجنيا عليه ولا جانيا، فما رفع شومه، ولا محو وشومه، وقد أثبت له ما تجتليه، فتستحيله، وتلمحه، فتستملحه، فمن ذلك قوله في مغن زار، بعدما أغب وشط منه المزار^(١).

وافى وقد عظمت على ذنوبه في غيبه قبحت بها آثاره^(٢)
فمحا إساءته بها إحسانه واستغفرت لذنوبه أوتاره
وكتبتُ إليه^(٣) عندما وصل أمير المسلمين، وناصر الدين إلى إشبيلية، صادرا من غزوة طَلَيْبِرة سنة ثلاث وخمسمائة ووصل في جملته، ونزل

(١) قلائد العقيان، ص ٥٢٠.

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٢١.

(٣) هذا الصواب من قلائد العقيان، ص ٥٢١ والذي في المطبوع: «وكتب إلى».

بمحلتة، واتفق لى شغل توالى واتصل، إلى أن رحل أمير المؤمنين - أيده الله - وانفصل، فسألت عنه، فأعلمت أنه سار معه، وما فارق مجتمعه، فكتبت إليه - مستدعيا من كلامه ما أثبتته فى الديوان، وأنبته فيه زهر بستان، فوافاه رسولى من البلد على مرحلة، فى ليلة من ضياء البدر مححلة، فكتب إلى - مراجعا - الحذر - أعزك الله - يؤتى من الثقة، والحبیب يُؤدَى من المَقَّة، وقد كنت أرضى من ودك - وهو الصبح - بلمحة، وأقنع من ثنائك - وهو المسك - بنفحة، فما زلت تعرضنى للامتحان، وتطالبنى بالبرهان، وتأخذنى بالبيان، وأنا بنفسى أعلم، وعلى مقدارى أحوط وأحزم، والمعيدى يسمع به لا أن يرى، وإن وردت أخباره تترى، فشخصه مقتحم مزدردى، ولا سيما من لا يجلى ناطقا، ولا يبرز سابقا، فتركه والظنون ترجمه، والقال والقيـل يقسمه، والأوهام تحله وتحرمه، وتحبيه وتخرمه، أولى به من كشف القناع، والتخلف عن منزلة الامتناع، وفى الوقت من فرسان، هذا الشأن، وأذمار، هذا المضمار، وقطان هذه المنازل، وهداة تلك المجاهل، من تحسد فقره الكواكب، ويترجل إليه منها الراكب، فأما الأزاهر فملقاة فى رباها، ولو خلت عن المسك حباها، وصيغت من الشمس حلاها، فهى من الوجد تنظر بكل عين شكرا لا نكرا، وإذا كانت أنفاس هؤلاء الأفراد مبشوة، وبدائعهم منثوة، وخواطـرهم على محاسن الكلام مبعوثة، فما غادرتم متردما، ولا استبقت لتأخر متقدما، فعندها يقف الاختيار، وبها يقع الاختبار، وأنا أنزه ديوانه النزيه، وتوجيهه الوجيه، عن سقط من المتاع، قليل الإمتاع، ثقیل روح السرد، مهلك صر البرد، إلا أن يعوذ به جماله، ويحرس بنقصه كماله، وهبه - أعزه الله - قد استسهل استلحاقه، وطامن له أخلاقه، أترانى أعطى

الكاشحين فى إثباته يدا، وأترك عقلى لهم سدى، وما إخالك ترضاها لى مع الود خطة خسف، ومهواة حتف، لا يستقل غبينها، ولا يبيل ظعينها.

وله فصل^(١) منها: فلم نحل بطائل، وصرنا تحت قول القائل:

ترك الزيارة وهى ممكنة وأتاك من مصر على جمل

الزيارة هاهنا - أعزك الله - مثل لا لفظ محتمل، لأنى أوجبها، ولا أستوجبها، وأفرضها، ولا أفترضها، والتأويل على كل حال، لا يتعدى الجميل مذهباً، ولا يتخذ ليل الشك مركباً، وأنت المفتوح للصلة، المولى للمنة المشتملة، وإن رسولك وافى بكتابك الخطير - والشمس واجبة سقوط منازع، وحية الذى يقضى حشاشة نازع، والبيت قد غص ببيانيه، وضاق لفظه عن معانيه، فاختلست أحرفى هذه اختلاس مسارق، والتماح بارق، والخاطر مخاطر، والشغل مساهم مشاطر، يصدر فكرى إليه، ويخلع فقرى عليه، إلا صبابه، لا ترد صبابه، ورسيسا، لا يشفى نسيسا، فدونك واهى الدعائم، واهن العزائم، يتبرأ تابعه من متبعه، ويفر سامعه من مسمعه، ولولا أن الجواب فرض يجرع معطله، ويخرج عن ملة التصافى مبطله، لاعتذرت، واقتصرت، ولكنى أوتر حقك - وإن أبقي على دركا، وبوأنى دركا، وقد حملت فلانا ما سمح به الوقت، وإن اشتبه على القصد والسمت، وحاضرت بما يسرت إلى ذكره، على شريطة كتمانته وستره - انقيادا إلى أمرك، وتصديا إلى عقوقك ببرك.

(١) قلائد العقيان، ص ٥٢٣.

وله أيضا^(١): ليست الأذنان كالأعراف، والأُنْذال كالأشرف، ولا كل أشرف بأشرف، فثم من يصم - ماولى، ويعمى عن الصبح - وقد جلى، إن ذكر نسي، وإن عدل فكأنما أغرى، وكثيرا ما يمتد شططه، فتحذف نقطه، ويهجر نمطه، وإن سامحنه فى الضبط، وأمتعناه بالنقط، نبذ الوفاء، فحذفنا الفاء، وجفى الكريم، فألغينا^(٢) الميم، وله بعد ما بقى، ما ألقى، إن أشرف فعلى الخطير العظيم، وإن اطلع ففى سواء الجحيم، ورب طويل النجاد، غريق فى الاتهام والإنجاد، ولايته أمان، وعمله جنان، وخلقه رضوان، تود النجوم أن ينظمها فى كتاب، أو ينسقها نسق حساب، قد ارتقى بخطته باذخ السناء، وأخذ بضبعها رافعا إلى السماء، فهناك، وأنت ذاك، طاب الجنا، ودنت المنى، وأيقن الشرف أنه فى حرم وحمى، أقسم بالمبتسم البارد، والحبيب الوارد، قسما تبقى على الشيب حدته، وتقر على المشيب جدته، ذكرى من ذلك العهد مدت بسببه، ومنت إلى القلب بنسبه، ليحتون على الكرام، وليجتروا على الأنام، وليأخذن فوق أيديها، وليكفن من تعديها، ما لها فتحت أثلاثهم، وتسمهم بغير سماتهم، وتصفهم بصفاتهم، وتعلمهم بعلااتهم، فأين أنت من الذنب، وسنام قد استوصل بالجب، وكيف ارتياحك بعد خمرٍ إن دارت، ولمكرمة بالشمس أشرقت وأنارت، لا جرم أنك منها على ذكر، وبمدرجة حمد وشكر، وما هو إلا الشريف الأوحد، ولا ينكر فضله ولا يجحد، أبو بكر - أعزه الله - وناهيك ثناء، وحسبك علاء وسناء، فتى دهى فى ضيعته هناك بدواه، ورمى بخطوب غير ريوث ولا سواه، ورأيك - أصاب الله برأيك، وجبر الأولياء بسعيك، فى تحصيل مراعاته، وترفيهه ومحاشاته، ولولا عذر منع، لكان على أفقك النير قد طلع، ولكنه

(١) قلائد العقيان، ص ٥٢٥.

(٢) هذا الصواب من قلائد العقيان، وبهامشه: «فتصبح الكرى وهو السهاد»، والذى فى المطبوع: «فألغينا» .

استتاب فلانا وحسبه أن يؤدي كتابا، ويقتضى جوابا، ويتصرف على حكمك
جيئة وذهابا - إن شاء الله .

وله يعتذر من استبطاء المكاتبة^(١):

ألم تعلموا - والقلب رهن لديكم يخبركم عنى بمضمره بعدى
ولو قلبتني الحادثات مكانكم لأنهبته وفرى وأوطأتها خدى
ألم تعلموا أنى وأهلى وواحدى فداء ولا أرضى بتفدية وحدى
ولما نكب^(٢) الوزير أبو محمد بن القاسم النكبة التى أنبأت بتعذر
الأوطار، لذوى الأخطار، وأعلنت بكساد الفضائل والمعالي، واستثثار الوضع
على الماجد العالى، لأنه كان طود كمال، وبحر جمال، وناظم خلال، وعالم
جلال، وحين ثل الدهر عرشه، وأحل سواه فرشه، خاطبه كل زعيم مسليا
عن نكبته، وانتقاله من رتبته، فكتب إليه هو فى جملة من كتب، وإن كان
نازلا عن تلك الرتب، برقعة مستبدعة، وهى، مثلك - ثبت الله فؤادك،
وخفف عن كاهل المكارم ما أدهى بك وآذك، يلقي دهره غير مكترث،
وينازله بصبر غير متتكث، ويبسم عند قطوبه، ويفل شباة خطوبه، فما هى
إلا غمرة ثم تنجلي وخطرة يليها من الصنع الجميل ما يلى، لا جرم أن الحر،
حيث كان حر وأن الدر - برغم من جهله - در، وهل كنت إلا حساما
انتضاه، قدر أمضاه، وساعد ارتضاه، فإن أغمده، فقد قضى ما عليه، وإن

(١) قلائد العقيان، ص ٥٢٧ .

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٢٧ .

جرده، فذلك إليه، أما أنه ما سلم حده، ولبس جوهر الفرند خده، لا يعدم
طبنا يشترطه، ويمينا يخترطه.

هذه^(١) الصمصامة، تقوم على ذكرها القيامة، طبقت البلاد أخباره،
وقامت مقامه في كل أفق آثاره، فأما حامله فنسى منسى، وعدم منفى، كلا
لقد فنيت الحقائق، وأنبته تلك العلائق، فلم يصحبه غير غرار، ومتن عار،
كلاهما بالغ ما بلغ، ووالع معه في الدماء ما ولغ، وما الحسن إلا المجرد
العريان، وما الصبح إلا الطلق الإضحيان، وما النور إلا ما صادم الظلام،
ولا النور إلا ما فارق الأكمام، وما ذهب ذاهب، أجزل منه العوض واهب:

لا تأس للمال إن غالته غائلة ففي حياتك من فقد اللهى عوض

ومن^(٢) قضى حق المساهمة في هذا الحال التي التوى عرضها، وتأخر
للأعذار القاطعة فرضها، أسف تردد، وارتماض تجدد، وذنوب على الأيام
تحصى وتعدد، وحباً اللئام منها تحل وتعقد، فيعلم الله - عز وجهه - لقد
استوفيت فيك هذه الأيام، ونهت فيك حتى المزن عن الابتسام.

قال أبو نصر^(٣): وفي أيام مقامى بالعدوة، اتفقت بينى وبين أبى يحيى
بن محمد بن الحاج - سقى الله مصرعه، وأورده منهل العفو ومشرعه - مودة
استحكم تواخيها، وشدت أواخيها، وغدونا بها حليفى صفاء وإخلاص،
وألفى إخاء واختصاص، والزمان مساعد، وصرفه متباعد، والشباب خضل
يانع، والدهر مبيح ما هو اليوم مانع، والدنيا سرور وإيناس، والأرض ظباء

(١) قلائد العقيان، ص ٥٢٨.

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٢٩.

(٣) قلائد العقيان، ص ٥٢٩.

وكناس، فوقع بينى وبينه فى بعض الأيام تنازع أدى بنا إلى الانفصال، وتعطل تلك البُكر والآصال، ثم نئى إلى عنه قول ضاق به ذرعى، واجتث منه أصلى وفرعى، فكلما صدنى عن الرحلة صممت ونكثت، من عرى التلوى ما كنت أبرمت، وبعد انفصالى علمت أن ذلك القول غدا زورا، ووشى به من غض أن يرانا زائرا ومزورا، فانقضت تلك المخيلة، وتحركت لوعته الدخيلة، وأكدت تجديد ذلك العهد الرائق، وكف أيدى تلك العوائق، فكتبت إليه^(١):

أكعبة علياء وهضبة سؤدد	وروضة مجد بالمفاخر تمطر
هنيئا لملك زان أفقك نوره	وفى صفحتيه من مضائك أسطر
وإنى لخفاق الجناحين كلما	سرى لك ذكر أو نسيم معطر
وقد كان واش هاجنا لتهاجر	فبت وأحشائى جوى تتفطر
فهل لك فى ود ذوى لك ظاهرا	وباطنه يندى صفاء ويقطر؟
ولست بعلق بيع بخسا وإننى	لأرفع أعلاق الزمان وأخطر

فأمره بمراجعتى فكتبَ عنه بقطعة منها^(٢):

ثنت أبا نصر عنانى وربما	ثنت عزمة الشهم المصمم أسطر
ونالت هوى ما لم تكن لتناله	سيوف مواض أو قنا متأطر
وما أنا إلا من عرفت وإنما	بطرت ودادى والمودة تبطر
نظرت بعين لو نظرت بغيرها	أصبت وجفن الرأى وسان أشطر

(١) قلائد العقيان، ص ٥٣٠.

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٣٠.

وقدما بذلت الود والحب فطرة وما الود إلا ما يخص يفطر
وكتب إلى الوزير المشرف، أبى بكر بن أحمد بن رحيم يهنئه بولاية
خطة الإشراف بحضرة إشبيلية وذواتها فى شوال سنة خمس عشرة
وخمسائة^(١):

إذا ما شرف الإشراف قوما فإن بنى رحيم شرفوه
ومن يعرف به لهم قديما وإن رغمت أنوف عرفوه
كفاة للملوك على سبيل ودين نصيحة ما حرفوه
أبو بكر له ولهم كفيل بكل كفاية إذ صرفوه
وما الإشراف إلا عبد قن لهم فمتى تولى استصرفوه
هذه^(٢) - أعزك الله - بديهة البشرى، وعجالة كعجالة القرى، وبريد
إلى أمم تلك القرى، فإنى لها بالإقبال ضمين، وعلى آلية ويمين؛ لتحوطنها
أقلامك، وليحمدن فيها مقامك، لتعرفن بالغرر والحجول أيامك، فحالفك
السعد، ولا عدملك الملك الجعد، وأبل وأخلف مثلها جددا - بعد، وما حق
من بشر باعتلائك، وسرى بأنبائك إلى أوليائك - أن يؤخر مراده، أو يضيع
عمله واعتقاده، وإن الحاج أبا عبد الله بن سعدان آملك الداعى لك - أبقاه
الله - أخبرنى بهذه المسرة والديمة الثرة، ولقد هممت على هذا البرد، بخلع
البرد، وحل العقد، وفض النقد، فدافعنى انقباضا، وأعلمنى أن له فى
علمك - أبقاك الله - أغراضا، تكون على ذلك أثمانا وأعواضا، وأرانى عقدا

(١) قلائد العقيان، ص ٥٣١.

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٣١.

يشهد بعدمه، وصحة ما استحثه في مقدمه، وأنه ليس له سوى غرس قد صار عليه كلا، بل استدار في ساقه كبلا، والتوى في عنقه غلا، وآص له غُلًّا لَا مُغْلًا، ولك الفضل أن يفتح نظرك - وفقه الله - بالتخفيف بمثله عن الضعفاء، ومن لا قدرة له على الأداء، وحمل الأعباء، فإن ذلك ذكر في العاجل، وأجر في الآجل - انتهى. لفظ القلائد.

وقد قدمنا عن صاحب الصلة أن بطالة الفتح، أخلدت به عن مرتبة ذى الوزارتين، الشاعر المجيد الكاتب أبى عبد الله بن أبى الخصال - رحم الله الجميع، وابن أبى الخصال المذكور، هو: محمد بن أبى الخصال مسعود بن طيب بن فرج بن خلصة الغافقي، أوليته من قرية بشقورة، تسمى فرغليط، وبها نشأ، ومنها تردد إلى الحاضرة في طلب العلم، ثم سكن قرطبة، يكنى أبا عبد الله، ويلقب ذا الوزارتين، وقيل: إن خلصة هو المكنى أبا الخصال - قاله أبو بكر بن خير وغيره، والأول قول أبى القاسم بن حبیش، وكان ينزل في اجتيازه عند ترده إلى الحاضرة على أبى الحسن بن مالك اليعمرى، القاضى بأبذة^(١)، وقد أخذ عنه يسيرا، وخرج معه - وهو فتى السن - إلى حديقة له معروشة، فقطف من أعلاها عنقود عنب أسود بعصى أهبطه بها على ترفق، فقال القاضى - محركا له، ومختبرا بديهته:

انظر إليه فى العصى

ثم قال: اجز يا محمد، فقال - مجيبا لفوره -

كرأس زنجى عصى^(٢)

(١) هذا الصواب من معجم الصدفى ونفع الطيب، والذى فى المطبوع: «أبذة» بالبدال المهملة.

(٢) المعجم فى أصحاب الصدفى ص ١٤٤ - ١٤٥ (ط. الثقافة الدينية ٢٠٠٠م، مصورة عن طبعة أوروبا).

فلحظه القاضى أبو الحسن بعين أخرى، وحكم له بما اقتضاه علمه من
مزية كبرى، سمع ذو الوزارتين من أبى الحسين بن سراج، وأبى محمد بن
عتاب، وأبى بحر الأسدى، وأبى بكر بن غالب بن عطية، وأبى الحسن بن
الباذش، وأخذ هو عنه - أيضا فتدبجا، وأبى بكر بن سائق الصقلى، ولقى
بالمرية أبا على الصدفى، فقرأ عليه صحيح مسلم، وجامع الترمذى، ومصنف
أبى داود، وأكثر صحيح البخارى، وكتاب عبد الغنى مشته النسبة، وأجاز ما
يحملة، وكتب إليه أبو عمران بن أبى تليد، وأبو على الغسانى، وابن أخت
غانم، وأبو عبد الله محمد بن على المازرى - مع جماعة من المشرقين
وغيرهم، وشارك القاضى أبا الفضل عياضا فى كثير من شيوخه ممن تقدم
ذكره وغيره، وعنى بالحديث فأتقنه، وإليه انتهت البلاغة، وعليه قصرت،
وموته فقدت، وصفة بهذا أبو القاسم بن حبش وغيره.

وقال فيه ابن بشكوال^(١): معجزة وقته^(٢)، وجمال جماعته، وكان
متفنا فى العلوم، مستبحرا فى الأدب واللغة، عالما بالأخبار ومعانى الحديث
والأثر، والسير والأشعار، أحد رجال الكمال.

قال ابن الأبار: سمعت شيخنا أبا الريح^(٣) يقول: سمعت أبا الحسين
عبد الرحمن بن أبى عامر الأشعرى يقول: سمعت الفقيه أبا مروان بن مسرة
يقول: لم يطلق اسم كاتب بالأندلس على رجل قبل أبى عبد الله بن أبى
الخصال. قال: وحكى لنا شيخنا أبو الحسين بن سراج، أن خاله أبا بكر بن

(١) الصلة لابن بشكوال، ص ٥٥٧.

(٢) فى الصلة: «مَفْخَرَةٌ».

(٣) نقله صاحب المعجم (ط. أوروبا)، ص ١٤٦.

خير، وأبا القاسم بن بشكوال، وأبا القاسم غالب - المعروف بالشرط، قصدوا ذات يوم قبر أبي عبد الله بن أبي الخصال، وقد وعدوا أحد تلاميذهم أن يقرأ هنالك عليهم قصيدته اليتيمة، التي وسمها^(١) بـ «معراج المناقب، ومنهاج الحسب الثاقب» قال: وكنت ممن صحبتهم لأخذها عنهم، فسمعتهم يترحمون عليه، ويقولون عند انتهائهم إليه - السلام عليك يا زين الإسلام، ومع كماله لم يحظ من أمراء عصره بآماله، وهى عادة الأيام العادية فى أمثاله، توارى مما بهر، وخفى أضعاف ما ظهر، وسار أخوه أبو مروان بالكتابة عنهم أشهر.

والذى قعد بأبى^(٢) عبد الله هو قيام ابن الحاج أمير قرطبة على ابن تاشفين، وثورته التى نكب عنها ونجا، ولكن كيف منها؟! وكان هو حينئذ أوثق حاشيته وأسبابه، وألصق وزرائه وكتابه، مع أن اختصاصه لم يكن إلا بابنه أبى يحيى أبى بكر بن أبى عبد الله، حتى أوسمه بذى الوزارتين، فجرت عليه تخصيصا بعنايته، ومكافأة لكفائته.

فكم جلا^(٣) من تلك الخطوب الجلائل، وأبلى باليراع والرسائل، مكان ذات الأغمد والحمائل، ولما استقل ابن الحاج، وولى ما ولى من أعمال المغرب، عاد ابن أبى الخصال لصحبته هنالك هو وأبو بكر بن عبد العزيز، وطائفة انضوت من حرمة إلى الحصن الحصين، والحرز الحريز، وذلك لشفوف هذا الأمير على أترابه، وخفوف ذاته الراجحة فى حقوق أصحابه،

(١) فى المطبوع: «رسمها» تحريف.

(٢) المعجم (مصورة أوروبا) ص ١٤٦.

(٣) المعجم (مصورة أوروبا) ص ١٤٦.

ثم إنهم انتقلوا بانتقاله إلى سرقسطة أم الشجر (الشرقي)^(١) حين حلها. ذابا عن أرجائها، ومجاهدا لأعدائها، حلول البر التقى.

وإذ حمت^(٢) شهادته قافلا من غزاته في التاريخ المعلوم^(٣)، كسد ما نفق في أيامه من بضائع العلوم، وناصع المنشور والمنظوم، فلزم أبو عبد الله داره خائفا من تلك الأحقاد القديمة وراضيا بالإياب إليها من الغنيمة، وفي أكثر عمره ارتد على عقب مأموله، وامتد بطول مدة ابن تاشفين حموله، وإن كان لا يسمى حاملا، من شهد للحلم حاملا، وعهد بالعلم عاملا، وحسبك بما له من التواليف الدينية، إلى أن ختمت منيته بالفتنة الحمدينية، فاستشهد - رحمه الله تعالى، ودفن يوم الأحد الثالث عشر لذي الحجة سنة أربعين وخمسمائة، وكان دفنه ضحى بمقبرة ابن عباس، قال ابن حبيش: استشهد في الحادثة الكائنة بقرطبة يوم السبت الثاني عشر من ذي الحجة، ومولده سنة خمس، وقيل، ثلاث وستين وأربعمائة.

قال بعض من عرف به: والظاهر في مقتله^(٤) أنه اقتحمت عليه داره - إذ دخل المصامدة قرطبة عنوة في الحرب الواقعة بين ابن حمدين وابن غانية - وأول انقراض سلطان الملثمين بالأندلس.

قال ابن الأبار: وكان شيخنا^(٥) الأديب الحافل، أبو الحسن علي بن محمد بن حريق يذكر أنه كان واقفا بباب داره، فمر به بعض المصامدة وقد ارتكبوا من الجرم، واستحلوا من المنكر، ما حمله على زجرهم، والإغلاظ

(١) ما بين الحاصرتين من المعجم.

(٢) المعجم ص ١٤٧.

(٣) يعنى به سنة ٥٠٩.

(٤) المعجم، ص ١٤٧ (ط. أوروبا).

(٥) المعجم لابن الأبار ص ١٤٧ (ط. أوروبا).

لهم، ثقة بمكانته، وعملاً بمقتضى ديانتهم، فاجترأ أحدهم عليه، واستدار من خلفه - وهو مشغول بما بين يديه، وما لبث عدو الله أن ذبحه، فخر فيه وفجع الإسلام فيه، - فالله أعلم.

قال: وقد أطرفنا أبو عبد الله بن الصفار الضرير شيخنا، من قتل قاتله بقصة عجيبة وكان - رحمه الله تعالى - صاحب غرائب مفيدة، وفوائد غريبة، فحكى أن مفيت نفسه الطاهرة، وسماه "تيفوت" ما زال بذلك يكثر الافتخار، ويظهر لمن يحزنه أمره - الاستبشار، حتى عرف بقاتل ابن أبي الخصال - سَمَةً غدت إليه، وأهدت حينه إليه، قال: وكان لابن غنية على فقد غنائه أسف زائد: هو بمجدهم شاهد، ولمحمدهم سائد، وهذا الآثم قد أركبه البحر إليهم سيل الفتنة، واعتقد أنه بميورقة جان للمنحة، وناج من المحنة، فربما جفوه إذا رأوه، ومقتوه متى لحظوه، واتفق أن عاينه يوماً إسحاق ابن محمد - وتيفوت البائس قد ذهب فتأوه، وكتب بنفوذ قضاء الله فيه فتأوه، فدعا به، واستدهى منه وصف عدائه، فما فرغ من ذلك حتى التفت إسحاق إلى جلسائه، وقد غضب واستشاط، وزوى الله تعالى عنه الاسترسال والانبساط، وقال: ينبغي لمن قتل ابن أبي الخصال أن يقتل، ويحق لمن لم يرع حقه أن يعاجل ولا يهمل، ثم أمر فأجهز عليه، وجر برجله من بين يديه، هذا أو معناه ما أسمعناه، وإنها لآية في الأخذ بثأره، وعناية من عالم إعلانه وأسراره، علم بها أنه تقبل أعماله، ورحم جلاله وجماله^(١).

(١) المعجم لابن الزبار ص ١٤٧ - ١٤٨ (ط. أوروبا) وإلى هنا ينتهي كلام ابن الأبار في المعجم.

ومن شعره - رحمه الله :

يا حـبـذا لـيلة لـنا سـلـفـت أغـرت بـقـلـبـي الـهـوى وـما عـرـفـت
دارت بظلمائها المدام فكم نـرجـسـة مـن بـنـفـس قـطـفـت
ثم انطوى دهرها ومن أسف إـن صـرـفـت لـوعـتى وـما انـصـرـفـت
وله فى وصف نار مضرمة فى فحم :

أما ترى النار وهى راقصة تـنـفـض أـردانـهـا مـن الطـرب
تضحك من ابنوسها عجباً إـذ حـولـت عـيـنـه إـلى ذـهـب
وله فى مطيب ورد مفصل بترنجان :

وورد جنى طالعتنا حدوده بـيـشـر ونـشـر يـيـعـثـان عـلى السـكـر
وحف ترنجان بها فكأنها خـدود العـذارى فـى مـقـانـعـها الخـضـر
وشعره كثير أوعب ذكره^(١) - ابن الأبار فى معجم أصحاب الصدفى،
وذكره ابن بشكوال، وابن الزبير فى الصلة - وليس من شرطه، وابن بسام فى
الذخيرة، ولا بن أبى الخصال - رحمه الله - عدة قصائد نبوية، منها قصيدته
الشهيرة المسماة بـ «معراج المناقب» ومنها عدة قصائد عارض بها بعض قصائد
حسان بن ثابت - رضى الله تعالى عنه .

وقد رأيت أن أذكر تأليفا للإمام ابن حبيش، اشتمل على تخميسها
فيكون فيه المطلوب وزيادة، وقد ألفيته بخط مؤلفه بل أحد تلامذته، وهذا
نص ما كتب على ظهره - بعد أن سماه بـ «العقيلة الحالية، والوسيلة العالية»
فى تخميس القصيدة المسماة بـ «معراج المناقب، ومنهاج الحسب الثاقب» -

(١) فى هامش المطبوع: «لم يذكر ولا بيتا من شعر ابن أبى الخصال، ولعل مراد المؤلف أن
ابن الأبار استوعب الكلام عن ابن أبى الخصال، كما سبق.

فى معجزات رسول الله - ﷺ، ونسبه الشريف، ومناقب أصحابه الكرام - ﷺ تسليما، ورضى عنهم أجمعين - من نظم الفقيه الأبرع، البليغ المصقع، الكاتب المتفنن، العارف المتسنن، أبى عبد الله محمد بن مسعود بن طيب بن فرج بن خلصة أبى الخصال الغافقى - رحمة الله عليه، خمست ليتوسل فيها إلى الله العظيم، بمدح نبيه الرؤوف الرحيم، ورسوله الأواه الحليم، وبتحلية أهل بيته الكريم، وأصحابه أولى السبق والتقديم، وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين ذوات البر والتكريم - صلى الله عليه ثم عليهم أفضل الصلاة، وسلم أشرف التسليم، وأعقلنا من حبه وحبهم حرمة تحرم بنا من التنعيم إلى جنات النعيم، وأذمة تنفعنا بالتصميم على الود الصميم وإيماننا تحجم عن نوره نار الجحيم، وأمانا يتلقانا يوم الفزع الأكبر بالسلام والتسليم، ويهدينا بكرمه المعين هداية العلية للصراط المستقيم، ويؤوينا إلى حرمة الأمين، وأوآية الفتنة إلى الكهف والرقيم^(١)، ويميزنا بعناية سيد البشر وشفيع المحشر، تميز الأغر من البهيم، ويخصنا من شفاعته المشفعة، ومجاورته المرفعة، بالقسم الوجيه، والوجه القسم، ويسكننا بين كرام أكرمهم عبادة ونسك، ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ... (٢٦)﴾ [المطففين]، ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧)﴾ [المطففين]، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ [الشعراء] تأليف الفقيه أبى عبد الله محمد بن الحسن بن يوسف بن الحسن بن حبيش اللخمي المرسى - رضى الله عنه - انتهى ما على ظهر الكتاب، وهذا أوان سرده بكماله - إن شاء الله تعالى .

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف].

قال الشيخ ابن حبيش - رحمه الله :

جلت عن ذكاء الحسن غيم التنقب

لتشنى غربى عن ثنايا التغرب

بأحور ساج أو بألعس أشنب

إليك فهمى والفوائد بيثرب

وإن عاقبنى عن مطلع الوحي مغربى

وكتب بالطرة ما نصه الرواية إليك - بفتح الكاف، ولكن الخمس أراد

الاستفتاح بيسير من الغزل، فقاده ذلك إلى كسر هذه الكاف، ولم يبدل من

هذه القصيدة فى هذا التخمين تحريك ولا تسكين إلا فتحة هذه الكاف.

انتهى .

قال ابن حبيش الخمس رحمه الله ورضى عنه :

صحبت الليالى فانجلى لى سرها متى تخدع المشتاق - لا در درها

فيذهب أحلاها ويبقى أمرها أعلل بالآمال نفساً أغرها

بتقديم غاياتى وتأخير مذهبي

أجل مرادى لو تساعد أسعدى حنين ركابى نحو حاد مغرد

ولا حاجز دون الحجاز لمقصدى ودينى على الأيام زورة أحمد

فهل ينقضى دينى ويقرب مطلبى

متى تسعد المشتاق بالقرب رحلة تقابل فيها للمدينة قبلة

وهل تشتري بالروح فى الترب قبلة وهل بقيت من مركب العمر فضلة

تبلغنى أم لا بلاغ لمركبى

وهل يشتفى من مكة أهل غيبة وهل وقفة فى باب أبناء شيبة

أرجى الرضى فيه بتعفير شيبة وهل أردن فضل الرسول بطيبة

فيا برد أحشائي ويا طيب مشربى

مغان تجير المذنبين بجاهها غدت جنة إن لم تكنها تضاهها

جرى ضرب بالمسك بين رداها ألا ليت زادى شربة من مياها

وهل مثلها ربا لغلة مذب

فليت الصبا ركب بروحى سائر لأرض ثواها ناصر ومهاجر

وليت ثراها إثمى على عاطر ويا ليتنى فيها إلى الله صائر

بقلب عن الإيمان غير مقلب

لقد فاز من أمضى القضاء اعتزامه فطنب فى دار الرسول خيامه

وطيب محياه بها وحمامه وإن امرءا وارى البقيع عظامه

لفى زمرة تلقى بأهل ومرحب

أجل بلاد الله مبدا ومحضرا بها اختار للمختار قبرا ومنبرا

فمن مات فيها بالشهادة بشرا وفى ذمة من خير من وطئ الثرى

ومن يعتلقه حبله لا يعذب

تناسمنى للشوق أعطر نسمة وتشرق لى بالشرق أنوار رحمة

فأقضى بهم أحياء بهمة ومالى لا أشرى الجنان بعزمة

يهون عليها كل طام وسبب

عناني بيسرى والقناة بأيمن وعضبي أنيسى والتنوفة موطنى
فمالى إذا أمضيت عزمى ينثنى وماذا الذى ينثنى عنانى وإننى

لجواب آفاق كثير القلب

أيفنى كذا عمرى وأمرى غمة وما الغدر - والأعداء فى الحب تهمة
أروع فإن الصب بالشوق بهمة أفقر ففى كفى لله نعمة

وبين فقد فارقت قبل - بنى أبى

تعطشت والحجاج من زمزم ارتوت ونالت-على رغم النوى-كل ما نوت
فمالى لا أطوى من البید ما طوت وقد مرنت نفسى على البعد وانطوت

على مثل حد السمهرى المذرب

أوامر سلطان الهوى كم أطعتها وحملت نفسى فرقة ما استطعتها
فكم واجبات لللقى قد أضعتها وكم غربة فى غير حق قطعها

فهلا لذات الله كان تغربى

إذا أحسن التأويل بى متجاوز فأيسر عيب فى أنى عاجز
أذو الصدق هالته السرى والمفاوز وكم فاز دونى بالذى رمت فائز؟

وأخطانى ما ناله من تقرب

أحب وفود الله لو كنت وافدا أو دعهم جمعا وأرجع واحدا
أعرض من يسرى وأخلد حائدا أراه وأهوى فعله البر قاعدا

فيا قعدى البر قم فتلب

لنفسى بتأميل البقاء اعتذارها وهبها تبقى والرجاء اغترارها
فأين إلى قصد الحبيب بدارها أمانى قد أفنى الشباب انتظارها

وكيف بما أعيى الشباب لأ شيب

خبأت لدهرى صولة ابن مكدم فألوت بحملى غربة ابن محلم
وللوخط فى فودى فتك ابن ملجم وقد كنت أسرى فى الظلام بأدهم

فقد صرت أغدو فى الصباح بأشهب

بمغترب التغريب طال توطنى وفى بلد التبليد ضاع تطفنى
ولا منقذ من بحر يغطنى فمن لى وأنى لى بريح تحطنى

إلى ذروة البيت الكريم المطنب

إلى المصطفى للبعث من خير محتد إلى المعتلى للقرب أرفع مصعد
إلى الشافع المنجى من النار فى غد إلى الهاشمى الأبطحى محمد

إلى خاتم الرسل المكين المقرب

إلى المقتدى حتى المعاد بهديه إلى المرتقى لله مرقى نجيه
إلى صاحب الخوض المغيث بسقيه إلى صفوة الله الأمين لوحيه

أبى القاسم الهادى إلى خير مشعب

إلى من له الإعجاز يعجز عده إلى من رآه البدر فانشق خده
إلى من سرافيل وجبريل جنده إلى ابن الذبيحين الذى صيغ مجده

ولما تصغ شمس ولا بدر غيب

إلى من تدانى قاب قوسين إذ سرى إلى سامع النجوى بلا واسط يرى
إلى المجتبى فى الغيب أكبر أكبرا إلى المنتقى من عهد آدم فى الذرى
يردد فى سر الصريح المذهب

إلى مغرق الإسهاب فى بحر نعته إلى من تهدى كل هاد بسمته
إلى من تمنى الرسل إدراك وقته إلى من تولى الله تطهير بيته
وعصمته من كل عيص مؤثب

إلى خير مبعوث إلى خير أمة حبه يد التمكين أوفر قسمة
وحفته فى الأصلاب ألطاف عصمة فجاء برىء العرض من كل وصمة
فما شئت من أم حصان ومن أب

كفاه من الرحمن مدحا مصرحا بشرح "ألم نشرح" وإيضاح "والضحى"
فقد أفحم القرآن من قال مفصحا كروض الربى كالشمس فى رونق الضحى
كناشئ ماء المزن قبل التصوب

غفرنا به للدهر كل إساءة جلا غيب الدنيا بأبهى إضاءة
كسا أوجه الأيام كل وضاعة عليه من الرحمن عين كلاءة
تجنبه إمام كل مجنب

تقدس بدءا من شعوب جليلة إلى متهاها من أعز فصيلة
فما مر إلا فى طريق فضيلة إذا أعرضت أعراقه عن قبيلة
فما أعرضت إلا لأمر مغيب

ولا طبعت إلا على البأس والندى ولا رضيت إلا إلى الخلد مصعدا
ولا عمرت إلا رباطا ومسجدا ولا عبرت إلا على مسلك الهدى
ولا عثرت إلا على كل طيب

فينمى حباه الله أنمى صلاته لكل سرى ساد بين سراته
بعالى معاليه وسامى سماته فمن مثل عبد الله خير لداته

وآمنة فى خير ضنء ومنصب

كريمة وهب واهبها كل بدرة نمت فى كمام المجد أبهج زهرة
ولاحت بأفق السعد أشرق زهرة إذا اتصلت جئاتك أفلاذ زهرة

كأسد الشرى من كل أشوس أغلب

فلله بدر قد جلا كل حالك لانجسابه أنجى به كل هالك
فما مثل ذاك النور هاد لسالك ولا خال إلا دون سعد بن مالك

ولو كان فى عليا معد ويعرب

سجايا يا رسول الله نفسى لها الفدا عراب لأحباب عذاب على العدى
فما السحب إن أهدى وما الشهب إن هدى ومن ذا له جد كشيبة ذى الندى

وساقى الحجيج بين شرق ومغرب

ملك البرايا غير أن لم يبايعوا فأهلا بمرضى الفعال المتابع
وسهلا بمسموع المقال مطاوع سؤدد البطحاء غير مدافع

وحرمة ما بين الصفا والمحصب

رئيس قریش عند سلم وغزوة بظل لواء أو بمجلس ندوة
يفض لجيش الحبش أوثق عروة أبو الحارث السامى إلى كل ذروة

يقصر عن إدراكها كل كوكب

رأوا بركات فى كراه ونبهه وبدلهم عشر الورود برفهه
وجاد به دهر بخيل بشبهه ونافره حرب فكب لوجهه

وقد كان لولا جوده فوق مرقب

أضاف لكسب الحمد ميراث جلة وأضفى من الأمداح أسبغ حلة
ولما نوى صهرا بأشرف حلة أتيحت له خير الفواطم والتى

أتيح لها فى المجد خير مركب

فما على كل من الحق أوجبت بما من أبى خير البرية أنجبت
لسيد آل الله طرا تقربت عقيلة مخزوم وعمران فاحتبت

على خير مولود وأكرم محتب

لقد مهدت خيرا على مهدها ربى رضية أخلاق سنية مذهب
سرية أعراق عليّة منصب وطيبة حمت لأطهر طيب

مطيبة زفت لكفاء مطيب

تيم دار الأمن أهل خيانة فقد صرفوا عن عزها بإهانة
ودان بنو حام لحامى ديانة به وبما فى برده من أمانة

حمى الله ذاك البيت من كل مرهب

غرايب عافت بقعة النسك بعقهم أتوا حرما أضحى به القتل شرعهم
فرد عليهم صانع الخلق صنعهم وأهلك بالطير الأبايل^(١) جمعهم

فيا لهم من عارض غير خلب

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۖ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۖ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل].

مبادئ إعجاز تلتها نهاية بمولود ذاك العام عمت عناية
فللدار والجيران عنه رعاية وفيما رآه شيبة الحمد آية

تلوح لعين الناظر المتعجب

وفى أمره فى الحلم بالسقى مسرعا وفى سلسل من مبرك العود أنبعا
وفى نذرة ذبح ابنه متبرعا وفى ضربه عنه القداح مروعا

ومن يرم بين العين والأنف يرهب

وقد نال منه أن ينال حبيبه فأقبل يدعو والفضاء يجييه
لفرعه زهر يملأ الأرض طيبه وما زال يرمى والسهام تصيبه

إلى أن وقته الكوم من نسل أرجب

أعاد ثلاثا ضربها متعوذا فلما استقر الأمر قال: انحروا إذا
وأبقاه حكما فى الديات منفذا وكانوا أناسا كلما أمهم أذى

تكشف عن صنع من الله معجب

إذا غضبوا فالله للقوم يغضب ومهما رضوا فالمرن يهمى ويسكب
هناك صفا عذب وأزهر معشب وعاش بنو الحاجات منهم وأخصبوا

وإن أصبحوا فى مربع غير مخصب

لهم نبأ أسماعنا تستعيده لذيد يشور الشهد منه شهده
وكيف على الأيام يبقى جديده وعمرو المعالى هاشم وثريده

بمكة يدعو كل أغبر مجذب

إذا ندف الصنبر كل سبيخة وصمت لعصف الهوج كل مصيخة

دعا الجفلى من غلمة ومشیخة لثتى جفان كالجوابى منیخة

ملثن عبيطات السنام المرعب

فلولاه ما لاذ العناة بمنقذ ولا عاذ سكان الصفا بمعوذ

ولا سدودوا فى الرحلتين لمنقذ هو السيد المتبوع والقمر الذى

على صفحته فى الرضى ماء مذهب

ولما دنا للدين إطلاع بدره ونقب عمرو عن حظية عمره

لتختار للمختار من حى نصره بنى الله للإسلام عزا بصهره

إلى منتهى الأحيا من آل يثرب

درى أن سيبدى الغيب مه سريرة فرام على ذاك الظهور ظهيرة

ومن صفوة الإيثار صافى أثيرة وخص بسلمى بنت عمرو ذخيرة

على كل بكر من قریش وثیب

تيمن خطبا إذ تيامن خطبة وأسس بين النضر والأوس قربة

وطنب فى أعلى المدينة قبة فأثبت للإسلام فيها محبة

وقاد من الأنصار كل محب

إلى وده انقادوا قروما مصاعبا أدرهم عام المحول سحائب

وأطلعهم لیل الحروب كواكبا وكتب منهم للرسول كتائب

عليهم من الماذى كل مكتب

فمن متقااض بالقواضى ديونه وبان على متن الحصان حصونه
ومستعذب طوع النبى منونه يفتدونه يوم الوغى ويقونه

بأنفس صدق بأسها لم يكذب

سقط بذئاب الكفر شدات أسدهم وكم بذلوا الأرواح صونا لمجدهم
فما نصر المختار إلا بجندهم وما دوخ الكفار إلا بحدهم

سنان طرير أو سنان محرب

بنو النضر أسمى حلة حيث حلت بدور تجلت فى سماء التجلة
رياض معال أثمرت وأظلت وعبد مناف دوحة الشرف التى

تفرع منها كل أروع محرب

تسمية أمال النوالى بكنزها وتأوى ملوك الأرض منه لحرزها
وتعنو نواصيهم له خوف جزها مطاع قريش والكفيل بعزها

ومانعها من كل ضيم ومنهب

ولما اقتفى من أشرف الصهر سنة وقد آن أن يستشعر الخلق منه
تزحزح عن نار وتسكن جنة تخير من سر العواتك مزنة

لهاشمه جادت بأمرع صيب

بأروع مطعام لدى كل لزبة وأليس مقدام على كل سرية
وأبلج بسام إلى كل كربة وما كان ذاك الطود إلا لهضبة

ذوائبها فوق السماك المذاب

صفات كروض الحزن - والمزن همع يلذ له مجنى ويذكو تضيع
هم ما هم قد راق مرأى ومسمع وزيد ومن زيد قصى مجمع
سمعت وبلغنا وحسبك فاذهب

إليه خبيئات المكارم أبرزت وبالمدح فيه حلة الفخر طرزت
شريف كم اعتزت بطون له اعتزت به اجمتعت أحياء فھر وأحرزت
تراث أبيها دون كل مذبذب

أعاد المجلى فى العدى كسكيتھ بما قاده من ورده وكميتھ
فطعامعهم لم يشن لیتاً لليتھ وأصبح ملك الله فى آل بيتھ
فهم حوله من سادنين وحجب

لقد حفظت فيهم حقوق مضاعة ومن بيتهم ردت عليهم بضاعة
وعن إرث إسماعيل دبت قضاة وما أسلمته عن تراض خزاة
ولكن كما عض الهناء بأجرب

تألف ما ألفى من الأرض شاغرا وأطفأ من كيد الأعاجم واغرا
وبالعضب صلتا ألقم الليث فاغرا وقد رد سابورا عن البيت صاغرا
بخطبة فصل أبعدت كل مقرب

وإذ جاش جيش الفرس من كل جلھة محا جمعهم محو الدليل لشبهة
وعفر منهم رعبه كل جبهة وردهم من كل أوب ووجهة
عباد يد لا يلوون نحو المثوب

تحلت قريش منه أبهى فضيلة ورتب حول البيت كل قبيلة
كما حف تقصار بجيد عقيلة وأيد من حبي بخير حليلة

نماها حليل فى ذؤابة يشجب

حوى الكعبة العليا فأعلى كعبه وحفته أقمار المحيط وشبهه
فما بوركت إلا حصان تربه وحسب التى جاءت بزيد وحسبه

بفخر لها منه على الدهر محسب

خئولته تنمى لصيد أكابر فمن أين لا يستل غضب المفاجر
ويحتل ربع المجد أشرف عامر وفاطمة من بيت عمرو بن عامر

وماء السماء الطاهر المتصيب

لمحتدها من يعرب الشرف العلى ففى الأزد زاد الركب فى كل مجهل
ومن سيل سيل محا كل جدول وما سببت إلا لمجد مؤثل

توطده والله خير مسبب

فتى يملأ الشيزى ويروى سنانه بنى شرفا قاد السماك عنانه
بجود عناه أو بجد أعانه وما مات إذ خلى عليه مكانه

كلاب ومن يشهده لم يتغيب

فمن أوجه نضرية ذات نضرة ومن شيم غر إلى شيم غرة
تلاقى السنا من أسرة وأسرة ولاذت قريش من كلاب بن مرة

بجذل حكاك أو بعذق مرجب

فما القطر إلا قطرة من بحوره وما الصبح إلا لمحة من سفوره
يفيض السنا فى شهبه وبدوره أبو الصرحاء الغر حيت بنوره

صريحة أبناء الشوير بن ثعلب

تتوج تاجى رفعة ومكانة وأسبغ بردى عفة وصيانة
فقضت به الآمال كل لبانة لهند ومن هند كخير كنانة

نجيبة عصر جهزت نحو منجب

تجلى لعين الزين أبهج قرة وراق بسلك الملك أنفس درة
وزان محيا الحى أشرف غرة ومرة ذو نفس لدى الحرب مرة

وفى السلم نفس الصرخدى المذرب

تقابل فى الأمجاد من كل جانب وسادته سروا باهرا للكواكب
خثولة فھر فى عمومة غالب لوحشية البيضاء بنت محارب

فسيمة فى أصله المتشعب

نمته كرام زينوا البأس باللهى يفيضون إيماناً ينثرون أوجها
سموا كالدرارى والمعاند كالسهى وكعب عقيد الجود والحلم والنهى

وذو الحكم الغر المبشر بالنبى

مشهر عليه وكاتم عرفه وواصف هدى يهتدون بوصفه
يسود بواديه يقود بزحفه خطيب لؤى واللواء بكفه

لخطبة ناد أو لخطبة مقنب

قضى فى اللهى بذلا وفى العرض منعة أجل بنى فهر جلالا ورفعته
وأقوم من فى فترة الوحي شرعة وأول من سمي العروبة جمعة
وصدر أما بعد يلحى ويطبى
فيا طبقات اللحد كيف علوته وما طمعت زهر النجوم بفوته
وقبل الظبا فل الجيوش بصوته وأرخ آل الله دهرا بموته
سنين سدى أتعبن كف المحسب
وعادات عرب أن تحافظ عهدا بتاريخها من موت من جل عندها
وقد أرخت من موت كعب وعدها بخمس مآت ثم عشرين بعدها
مكملة واستنطق الكتب تعرب
له عفر الأمجاد خد ضراعة فتلقاه عدنان بسمع وطاعة
وترضيه قحطان بجهد استطاعة لماوية الغراء خير قضاة
لكعب فتى القين بن جسر بن تغلب
مفرق وفر جامع للمحامد غدا خطوة تاجا لهام الفراقد
بغر المساعى والجدود الأماجد وأضحى لؤى غالبا كل ماجد
ومن غالب ينميه للمجد يغلب
فناهيك من غض المحاسن أبلج ومن فاتح للمرتهى كل مرتج
أقر له بالرق كل متوج وجاءت به وحشية بنت مدلج
هماما متى يستقدح المجد يثقب

يتمم زيا للهياج متى ابتدى يعمم فيها بالردى كل مرتد
بمسرودة زغف وماض مهند وألقى عليه غالب كل سؤدد
يقصر عن أوصافه كل مسهب

بهم صحت الأزمان بعد زمانة وهذئت الدنيا لأهدى ديانة
ترقوا بأعلى الرسل أعلى مكانة وما منهم إلا مؤدى أمانة
يصان لها صون الضمير المحجب

لهم بأغر الخلق عز وحرمة تجلى بهم جلى وتفرج أزمة
وكلهم حامى الحقيقة بهمة وحامل نور حظه منه عصمة
وتقديسه من كل عاب ومجذب

خلال جلال مبدآت معادة نماها علاء باهر ومجادة
وغالبهم قد غلبته سيادة له من هذيل فى الصميم ولادة
تزاحم أعراف النجوم بمنكب

نزاع العدى منه بأروع أحودى على السمى من أسلافه الصيد يحتذى
وزاد سمووا آخذا كل مأخذ بليلى لغنم وابنة الحارث الذى
له الفيلق الجأواء من كل موكب

مضت أعصر - والقوم عصرة أهلها رأوا بركات الوحي قبل محلها
صلاح بها الإصلاح للأرض كلها وفهر أبو الأحياء جامع شملها
وكاسبها من فخره خير مكسب

أووا منه فى أزم الزمان وأزله إلى متبع فرض السماح بنفله
يبید نداه ما يفید بنصله تقرش فامتازت قریش بفضلہ

وسد فسدوا خلة المتأوب

أحان العدى رعبا وما سل منصلا وشعشع للأخلاق أريا وسلسلا
وقلد للتقریش عقدا مفصلا وغادره اسما فى الكتاب منزلا

يمر به فى آية كل^(١) معرب

مذاكيه فى الأقطار داست ودوخت وفى كل روع كم أغاثت وأصرخت
بدا غزة فى جبهة الدهر شمرخت وجندلة بنت المضاضى شدخت

به كل ذمر للعلی متوثب

يروع سرب الشمس إن هز نصله وتهفو الدرارى حين يرسل نبه
أطل على المجر اللهام فطله فأصبحت الأعناق خاضعة له

كما استسلمت كدر البغاث لأشهب

تشابك عزا بالنجوم الشوابك وقالت علاه ما السماك بسامك
صوارمه للفتك فى كل فاتك ومالك المربى على كل مالك

فتى النضر حابته السيادة بل حبى

غمام سفوح بالحياة وبالردى به الرى للعافين والصعق للعدى
نوال لمن رجا نكال لمن عدا هو الليث فى الهيجاء والغيث فى الندى

وبدر الدياجى حين يسرى ويحتبى

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَلَافُ قُرَيْشٌ﴾ [قریش].

معرف عرف حسب ذى الحاج حجه وقبله آمال إليها التوجه
حودى الطود والضرغام والبحر سرجه تردى بفضفاض على المجد نسجه

ولبس عليه فليجر ويسحب

سيادته أعفت من المن منها وأيامه أبدت بحسنه حسنه
وآماله نالت بيمينه يمينها وفخرا لهند بنت عدوان إنها

به أم وبل طبق الأرض معشب

فيا لكریم فی الكرام مردد صدور القنا يلقي كصدر مهند
وحمر الظبا يهوى كخذ مورد وللنضر ما للنضر من كل مشهد

هو الشمس صعد فى سناها وصوب

تباح عطايه ويحمى ذماره ويخشى معاديه ويأمن جاره
فللحكم نادية وللعز داره ليالى أذكت فحمة الليل ناره

فما تستر الظلماء مقلة جندب

مقنى القنا من كل أغلب أضبط فكم شاحط من خوفها متشطح
وكم ريع منه القاسطون بمقسط وقيد إليه كل ملك مسلط

يقال له أقبل ذليلا أو اذهب

درى كل ملك أن سيد خندف سيثقفهم بالجود أو بالثقف
فدانوا بتأميل له وتخوف فيزحف فى أغلاله كل مترف

ويرسف فى اقتاده كل مصعب

ملك كفته جرده عن أسرة ضحوك إلى الآمال جم المسرة
عبوس لدى الأمثال جهم الأسرة نهيض الفتاة الطابخية برة

وأى معال بيته لم يهذب

كذا يعتلى عال ويفخر فاخر سما أول للعرب واعتز آخر
ففاضت هبات واستفاضت مفاخر وأعرض بحر من كنانه زاخر

يقاد إلى أمواجه كل مذب

سحاب الحبا طود الحبي ضيغم الوغى طغى سيفه فيمن تجبر أو طغى
وحكم فى الباغين أضعاف ما ابتغى وخير حكما فى الصهيل أو الرغى

أو البيت أوعز على الدهر مصحف

وأشعر فى العقب السننى احتجازه لملك تطيع الأرض فيه حجازه
وقيل تخير ما تروم فحازه فلم يقتصر واختار كلا فحازه

إلى غاية العز المديد المعقب

فنون احتفاء ضمها منه أوحد بأربعها حياه جد مجدد
ليمهد سعد للرسالة مسعد له البيت محجوجا وعز مخلد

وأجرد يعبوب إلى جنب أصهب

فمن حملت فى النسل منه أمانة تكفل تقديس بها وصيانة
فقد حق أنجاد له وإعانة ومن ولدته بنت عمرو عوانة

فما الدهر من أدنى مداه بأرحب

طغاه ملوك غنمه لا غنيمة وأغلالهم بيض الظبا لا رميمة
فشت أيمة فى مترفيهم وعيمة وخازم آناف العتاة خزيمة
فعاذوا بأخلاق الذليل المغرب

قسيم تراء ذو ثراء مقسم عدا كل ظلام جلا كل مظلم
برأفة علام وسطوة معلم عظيم لسلمى بنت سود بن أسلم
لكل قضاعى كريم معصب

لهم سلف سمر العوالى وسامر وحاضر كبر للتكبر حاطر
يجار به خاش ويخشاه جائر ومدركة ذو النجح واليمن عامر
وخير مسمى فى العلى وملقب

له النسبة العظمى كما شاء سروه تلاقى بها طهر الغمام وصفوه
وللفخر منها ضوءه وعلوه تراءى مطلا إذ تقمع صنوه
فهاز بقدح طائر لم يخيب

عموم ثناء لا يخاف مخصصا وأتلع فخر رد كيوان أوقصا
تواضعه أن يواطئ البدر أخصا لام الجبال الشم والقطر والحصا
لخندف أن تستركب الأرض تركب

فلا غرو أن قادت لهم كل أمة سيوف انتقام فى أيامن رحمة
فهم سحب إمحال وأقمار ظلمة وإلياس مأوى الناس فى كل أزمة
ومر بهم فى كل خوف ومرهب

مبصرهم أمر المآب وقد أبوا وملهمهم أن يسنيروا وقد خبوا
ومذكرهم ما قد تناسوه إذ صبا وزاجرهم إذ بدلوا الدين واستبوا

فأضحوا بلا هاد ولا متحوب

تخولهم بالوعظ صباحا وهدأة وفي السمع وقر لا يحسون نبأة
زمان نفى الجهال للحشر نشأة وحين دعوا بعلا ضلالا وجرأة

على ربهم واستعتبوا كل معتب

تمرس بالأعداء جذل حكاكه وأشرع للأوثان رمح سماكه
وقد قام من ملك الورى بملاكه وجاءهم بالركن بعد هلاكه

وقد كان فى صدع من الأرض نكب

سباه ألوا بأس شديد وقوة فألهمه نسيا بأغمض هوة
ليحفظ أمر الناس حفظ أبوة وما هو إلا معجز لنبوة

وبشرى وعقبى للبشير المعقب

أقام حقوقا للمقام المطهر وأشعر للتقديس فى كل مشعر
ووفق فى مرمى ومسعى ومنحر وحج وأهدى البدن أول مشعر

لها وفروض الحج لم تترتب

خصال بها قد حازت العرب خصلها تجالسسه سمح الخلائق سهلها
وتصغى له عذب المقالة جزلها وكم حكمة لم تسمع الأذن مثلها

له إن تلح فى ناظر العين تكتب

تبجح مرقى يبهر النجم سمته كما بهرت نظمي حلاه ونعته
وعن قنص يغنيه نهب يشته إلى قنص تنميه سوداء بنته

كلا طرفيه من معد لمنسب

عمائر لو لم يعمرها الأرض عطلت سقوها نوالا فاض أو مهجا غلت
فلولا انهمال السيب والسيف أمحلت وفي مضر تاه الكلام وأقبلت

مآثر سدت كل وجه ومذهب

تضايقت الغبراء عن فرط وسعها وأخملت الخضراء في عظم ربعتها
لصيد صناديد تسود بطبعها وجشن وكاثرن النجوم بجمعها

بأكثر منها في العديد وأثقب

تعجبت حتى لا تعجب مثله لصنوين قد حازا التساوى كله
فلما بدا سبق يريغان خصله هنالك آتى الله من شاء فضله

وقيل لهذا سر وللآخر اركب

إخاؤهما أخيتان تفاوتتا وخولف بالذاتين حين تساوتا
وقيل لدى الإنصاف شتان تاوتا وكان شقيقى نبعة فتفاوتتا

لعلم وحكم ماله من معقب

إن اشتبها في مآثرات رفيعة فما محلة في الروض مثل مريعة
ولا دجلة في الفيض مثل وقية وذلك أمر الله يابن ربيعة

وتأسيسه للوحى فاطف أو ارسب

هما ما هما لا فعل إلا تكرم ولا كف إلا وهى تشقى وتنعم

سوى أن ذا غفل وذلك معلم وما منهما إلا حنيف ومسلم

على بهج إسماعيل غير منكب

فأربعهم قد عدل المجد قسمه كما عدل التريع فى الطيع جسمه

وكل ذكى صادق الصدق رجمه وقد سلم الأفعى نبجران حكمه

إليهم ولم ينظر إلى متعقب

ولما استقروا فى مكين قراره تطوف الجوارى حولهم فى جواره

بنصر قراه فى مقارى نضاره رأى فطنا أبدت لنا عن نجاره

وكان لنبع فاستحال لأثأب

فراستهم قد صح فى الكتب نقلها يبين بها عقد الأمور وحلها

كأن لسان الغيب عنهم يملها وتلك علامات النبوة كلها

تشير إلى منظورها المترقب

فيا مادحهم أطنبوا إن وصفتم فما غاب عنكم فوق ما قد عرفتم

أتت سنن سبابة إن قطفتهم وقال رسول الله مهما اختلفتم

ولم تعلموا قصد السبيل الملح

وأقصد إشكال وأشكل مقصد وسد عليكم كل باب يسد

ولم يبق إقليد سوى أن تقلدوا ففى مضر جرثومة الحق فاعمدوا

إلى مضر تلفوه لم يتنقب

ربيع ندى يغنى بأول رودة فمن ذا يجاريه بجود وجودة
وبدأة نعماء لها ألف عودة وسودة عك أمه من كسوة

وعدنان ينميها لأقرب أقرب

يرون الندى كالغرض حانت وقوته فلا معتب إلا ذراهم بيوته
ولا سبع إلا ظباهم تقوته وما سيد إلا نزار يفوته

ومن فاته بدر الدجى لم يؤنب

تمضر ترد غمر العطاء وعده تنزر ترد زهر الثناء وورده
فإن نزارا ما ارتضى النزر رفده قريع معد والذى سد فقده

متى يأتهم شعب من الدهر يرأب

مجلل وجه الأرض من نسل جلة فطرف وصمصام وسرد وألة
ومترعها من أنجم وأهلة أبو أبحر الدنيا وأطواها التى

بها ثبتت طرا فلم تتقلب

يذيلون إن عنت لحرب لبانة نفوسا عن الفحشاء فيها صيانة
تخف إلى الداعى وثم ركانة ولم يكفه حتى أعانت معانة

بكل عتيق جرهمى مهذب

لقد بسمت دنيا طويل عبوسها بذى عزة يصفو عليه لبوسها
له انقاد آيها وذل شموسها وجاء معد والسماء شموسها

وأقمارهم فى ذيلة المتسحب

قطار سقى حزن البلاد ووعثها ثوى مذحوى كسب المعالى وإرثها
بأفلاك عز دائب السعد حثها وبين يديه الأنجم الزهر بثها
على الأرض حتى لا مساغ لأجنبى
حمى عربه فالعجم لم يأمنوهم وصال بكفار العدى مؤمنوهم
له الأرض إلا جيرة أسكنوهم تقسمها أبناؤه وبنوهم
فلا فضل عن رمح وأجرد سلهب
وخطارة تخدى بأروع باسم ومطنوبة بين النجوم العواتم
ومنشورة فوق الجيوش الخضارم وزوراء مرنان وأبيض صارم
وزغف دلاص كالغدير المثوب
ولما ارتقوا كالموج من بحر درهم وقد ضاق عن أقمارهم وسع جوهم
بنوا بالعوالى ما ارتضوا لعلوهم ولولا انفساح فى بلاد عدوهم
لضاقت خطاهم عن مراح وملعب
تضمن سرا من سليل مطهر فلقى صونا فى مغيب ومحضر
وأجبر من ناواه من متجبر وقدا تحفى الله من بخت نصر
به والورى من هالك ومعذب
قضى الله فى سكنى المفاز مفازه فأضفى عليه جاهه واعتزازه
وحلى بإفرند المضاء جوازه وجنبه أرض البوار وحازه
إلى معقل من حرزه متأشب

حباة من الإجمال أجزل حظه وخلصه من مغلظ القلب فظه
ونجاء حتى من تسمع لفظه وحل بأرمينية تحت حفظه
لدى ملك عن جانبيه مذب

يشيد له ركنى علاه ومجده ويقضى به حقى أبيه وجده
ولله سرفيه أن حان ييده فلما تجلى الروح أسرى بعبده
إلى حرم أمن لأبنائه اجتبى

أووا لمقام ما أعز مقيمه يجلون منه ركنه وحطيمه
وللشمل عقد يحفظون نظيمه وقد كان رد الله عنهم كليمه
ليالى يدعو دعوة المتغضب

ثروا مأمنا إن صاونوه يصنهم ومهما استعانوا الله فيه يعنهم
إلى أن فشا حب التغلب عنهم وجاء بنو يعقوب يشكون منهم
ينادونه هذا قتيل وذا سبى

رجوا سلب الأمر الذى بيديهم وقالوا لموسى سر بجيش إليهم
وإلا دعاء فهو أدهى لديهم قال له: لا تدع موسى عليهم
فمنهم نبى أصطفيه وأجتبى

هو المرتضى فى الأنبياء وحسبه سترفع قرباه ويشفع قربه
وفى بعثه هم تابعوه وصحبه أحبهم فيه رضى وأحبه
كذلك من يحبه يكرم ويحب

أفضلهم لما بلوت غيوبهم لتفضيل من ألفت فيه قلوبهم
وأنزع من شرب الصفاء ذنوبهم وأغفر إن يستغفروني - ذنوبهم

ومهما دعا داع أجبه وأقرب

رأهم كلیم الله مثل الأیمة تضاعف حسناهم لرعى الأذمة
ويوهب عاص للمطیع المسمت فقال: إذن فاجعلهم - ربی أمتی

فمن ترضه یارب یرض ویرغب

أفض بهم ممن طغى كل عروة وأعتد كلا فيك صحبی وإخوتی
یشدون أزرى أو یشیدون دعوتی فقال هم فی آخر الدهر صفوتی

یفضون أعدائی ویستنصرون بی

خلال معد مالها من معد فكم من تقى نفس إلى عز محتد
ومن بشر وهاب إلى هدى مرشد دعائم إیمان وأركان سؤدد

مضت بعلاها مهدد بنت جلدب

خواتم أنساب كدرة خاتم تقضت وفضل القوم غیر مقاوم
وكم بعدها من معلم متعالم ومصعد عدنان إلى جذم آدم

بأیین من قصد الصباح وأحب

مناسب تشریف عدمنأ شیئها إذا نبهوا ى شأو مجد نیئها
ملاحقها فيه یبارى وجیئها ونهى رسول الله صد وجوئها

وكان لنا فی نظمها شد ملهب

نهى فانتبهينا واستراحت عواذل فلا نقلة عما انتقى عنه ناقل
بحكم ذاك الحكم أسكت قائل والأفأد بن الهميسع ماثل

ونبت بن قيذار سلاله أشجب

حديث من الأنساب ما كان مفترى تجمع فى نادية مفترق الورى
فحلوا حمى رجب الذرى سامى الذرى وواجه إعراق الثرى كل من يرى

وأسمع إسماعيل دعوة مكثب

بدورا تسام للتسامى تبادروا متى يتأخر سيد ساد آخر
تقضوا وكل بالقضاء مؤازر وقام خليل الله يتلوه آزر

أغر صباحى لادهم عيهب

وكل عجاب عند آزر يلتقى مفجر صفو وهو أكدر مشرق
ومطلع إشراق وليس بمشرق إلى الناحر بن الشارغ الغمر يرتقى

وللراغ ثم القاسم الشامخ الأبى

تولوا وكل سابق الفخر باذخ تألقهم فى دهمة الدهر شادخ
ومبناهم فى ذروة العز شامخ ويعبر ينميه إلى المجد شالخ

إلى الرافد الوهاب برك وطيب

فكم مصعب قادوه طوع جنابهم وكم حملوا من مرسل فى إهابهم
فقد جاوزوا الجوزاء عند انتسابهم لسام أبى السامين طرا سما بهم

لنوح للكان العلى لمثوب

أثيب على عقل وفضل مكمل بتكثير نسل فى بقاء مطول
فبورك فيه من أغر محجل لإدريس ثم الرائد بن مهلهل
لقينن ثم الطاهر المتطيب

لقد فض عن سر العلى كل خاتم وأحصى علوما أرشدت كل عالم
لرغم العدى مادونه من مراغم إلى هبة الرحمن شيت بن آدم
أبى البشر إلا على لطين لأثلب

لمبدئنا عدنا وذل قيادنا فكيف افتخرنا - والتراب ولادنا
به عن قريب لحفنا ووسادنا فمنه خلقن ثم فيه معادنا
ومنه إلى عدن فسدد وقرب

على فطرة نحيا ونبعث فى غد وبالسنة الغراء نهدى فنهتدى
برثنا إليها من غوى وملحد فنحن على دين النبى محمد
شفيع إلى استنقاذنا متأهب

إذا هال يوم الحشر واربد فجره تجلى رسول الله يشرق بشره
ونشر لواء الحمد يعبق نشره على موعد من ربه سيسره
ببشراه فى اليوم العبوس المقطب

لدار السلام اقتادنا بسلامة إمام لرسل الله أى إمامة
يشرفه الرحمن يوم قيامة ويعثه فيه مقام كرامة
وبشرى لأمن الخائف المترقب

شفاعة فوز توسع الكفر تعسه يقوم بها من شاد للدين أسه
وشرف نوع العالمين وجنسه وكل نبى لا يحدث نفسه

بها فهو منها فى تفاد ومهرب

بما خصه ينسى عموم البريئة برى طاعة هجر العصاة المسيئة
فيسلمهم طرا لحكم المشيئة إذا أمه جمع يقول خطيئتي
ونفسي نفسي ذاك فجنب

سوى المرتقى منهم لأرفع رتبة عليه صلاة الله قدر محبتي
ييوئهم أكتاف قربى وقربة فيأتونه من بعد بأس وكربة
وقد ذهلت أم الصبى عن الصبى

ينادون يا أعلى النبيئين جانبا أتى كل عاص نحو فضلك راغبا
عسى الله ينجى من أوى لك هاربا فيسجد إعظاما ويضرع دائبا
إلى أن ينادى اشفع تشفع وتحب

فيقضى لنا من رحمة الله فى غد بتسع وتسعين اختباها لموعده
ويشمل أهل الحشر جاء محمد وتلفظ نار الله كل موحد
مردى بغشيان الكبائر ملهب

فيخرج أقوام من النار خفت قد اصطرخوا حتى أهينوا وأصمتوا
فهم حمم لكن على الذكر ثبتوا فيلقون فى نهر الحياة لينبتوا
نبات البزور فى حميل مجلب

فيأتى من الله البشير مبياضا لما اسود من أبشارهم ومعوذا
 من اللهب الوقاد روضا مروضا ويلحقهم فضل الشفاعة بالرضى
 كلوا واشربوا من خير أكل ومشرب
 فكل امرئ من خالص العقد بحته يرجى لدى هول المعاد وبغته
 مفازا بتشفيع النبي لوقته سوى أن قوما جعجعوا بابن بنته
 وحفوا به من قاتل ومؤلب
 فقد كفروا فضل الرسول ومنه وضاع لديهم ما تلاه وسنه
 أحين كساهم أمه روعوا ابنه وذادوه عن ماء الغفرات وأنه
 لنهب العوافى من أسود وربرب
 لدى الطف يا ويل لكل مطفف مصاب متى تسمع به الشمس تكسف
 غدا بغيهم من سبط أحمد يشتفى وأنحوا على أوداجه كل مرهف
 طرير وحزوا رأسه للتوثب
 ولو قام يدعو واستغاث قديمه إذا لثناهم ذو الفقار هشيمه
 ولكنه فى الخلد رام نعيمه كأنهم لما أباحوا حريمه
 أباحوا حريم الديلمى المحرب
 دهانا بشر معتد كل معتد وفجع خير الخلق فى خير سيد
 وأهدى دجى ثكل لأنور ملحد فيا ربنا ماذا جزاء محمد
 وواتره فى أهله كالمكذب

لقوا في جحيم رجزه ونكاله كما أكلوا الهادي بنيه وآله
وسبطا غدا ريحانة في الدني له وقاتله قد فات عن أن تناله
شفاعته أو أن يقال له أقرب

أثارت لهم ثارات عتبه ضغنهم وقلب تذكار القلب مجنهم
فمن لم يياشر طعنهم يخش لعنهم برئنا إلى الرحمن منهم وأنهم
لأجهل جهال وأخيب خيب

بنفسى رسول شرف الرسل أجمعا لتذكاره ذنبا نفوسا وأدمعا
ومهما عثرنا قال إحسانه لعا وإنا لنرضيه وأصحابه معا
ونأخذ بالإجماع دون الشعب

نرتب صحب المصطفى طوع وفقه ونحمل مسكوتا على حكم نطقه
ونرعى لذى سبق مزية سبقه ونعطى أبا بكر عتيقا بحقه
ونجرى إلى حفظ النظام المرتب

عتيق بن عثمان معم ومخول لأوفر أقسام السعود مخول
بتفضيله نص أتى ومؤول وما قبل ثانيه من الناس أول
ولا مثل ثانى اثنين^(١) مدحة مطنب

تنحب تيم رهطه وفرقه وأنجبه محض العلاء عريقه
وسدد خير الأنبياء طريقه ومن ينتقص صديقه ورفيقه
وصاحبه فى الغار يشرق ويشجب

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿...ثَانِيَانِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا...﴾

ويحبط من الخيرات ما كان عاملا ويخبط بليل لا يرى النجم آفلا
ويدرج نفاقا بين جنبيه قاتلا ويخرج من الإيمان إن كان داخلا
وإن يأت يستعتب فليس بمعتب
لقد حاز فى الإسلام خصل سباقه فرباه سقطا عالما بئاتلاقه
وأحياء حين ارتد أهل شقاقه مؤلف شمل الدين بعد افتراقه
وكاشف خطب الردة المتعصب
معادى الورى يبغي لأحمد خلة ومفنى القنا حتى تخلل شملة
ولابس صديقية الله حلة وقاتل قوم فرقوا الدين ضلة
وقالوا صلاة لا زكاة فذبذب
فلو لم يقدمهم - والجفون غضيضة إلى الصفح قدتهم صفاح عريضة
شفى ملة الإسلام وهى مريضة فقال الصلاة والزكاة فريضة
وليست صلاة من زكاة بأوجب
أللشرع تبديل وما بعد المدى بتفريقهم للدين أمهوا له المدى
أجاهدهم جهدى فهم أعظم العدى ومالهم - عندى - سوى سنة الهدى
أو السيف فليدن أمر أو ليعزب
كسا العرب - لما آمنت برد أمنه فزارته من سهل المزار وحزنه
لخوف يمانية وتأميل منه وكانت لسيف الله فيها ييمنه
حروب شفت من كل غل ونيرب

إمامته الصغرى أشارت وحسبه إلى صحة الكبرى فبودر نصبه
وفى قول "يأبى الله" زاد التنبيه إمام ينام المسلمون وجنبه

على حسك السعدان يجفون ويتبى

رحيم السجايا يوسع الشرك نقمة سنا عدله لم يبق للظلم ظلمة
وشاد بنا الإسلام حكما وحكمة إلى أن جلاها كربة مدلهمة

بعارض موت للمنايا به حبي

تملك دنيا لم يعرها تلفتا وساس البرايا ماضيا متشبها
وجمع وحى الله فى الصحف مثبها ومهد للإسلام حيا وميتا

فأعظم به من حول الرأى قلب

بحسنه سار الناس أرفق سيرهم ولكن عناه بعده خوف ضيرهم
فأوصى إلى الوافى بتسكين طيرهم وعلق أبصار العباد بخيرهم

وأمضاهم فى الله هبة مضرب

بأوقر فى ناد وأسبق فى مدى وأصعب فى بأس وأسهل فى ندى
وأرحم فى صحب وأبطش فى عدى وأربطهم جأشا وأطولهم يدا

وأثقلهم وطئا على كل مشغب

حسام عدى حاسمى عمر من عدا نجيب نفيل نافلى سلب العدا
سلالة خطاب خطيب من انتدى أبى حفص الفاروق عز به الهدى

وجاهر أهل الكفر لم يتهيب

رعى ملة رد الممالك ملكها وهامت به الدنيا فلم يعد فكرها
وزاد إلى عدل الخلافة نسلها وعز فبز الفرس والروم ملكها

ومن يعتصم بالله يغلب ويسلب

جبابرة الأملاك طرا له عنت فقسم أسلاب القصور التي ابنت
وقسم أصلاب الجنود التي اقتنت ودوخ آفاق البلاد فأذعنت

وألقت إليه كل مسرى ومسرب

فكم نقد الأبطال نقد زيوفه وجهز رأيا مغنيا عن ألوفه
وبيض وجه الدين حمر زيوفه وأفنت حماة السرخ بيض سيوفه

فلم يبق إلا كل العس أشنب

فمن فضة في المعدمين يفيضها وذاهب أذهاب بأجر يعيضا
أفيئت عليه صفر دنيا وبيضها وفضت كنوز القوم يعشى وميضا

بزرق وحرر في نضار مشيب

فكسرى كسير تستباح سروحه وقيصير مقصور تهد سروحه
محاهم تقى تاق للخلد روجه فلما اقتضت وعد الرسول فتوحه

وقضى وأمضى كل هم ومأرب

وفى الدين والدنيا حنته إرادة وللملأ الأعلى دعتة وفادة
وحنت له عدن وحانت سعادة أتته - ولم يوجف عليها - شهادة

وإن تنأه يعنق إليها وينصب

تلقى حبيبه بنفس تطهرت وجاور في دار زكت وتعطرت
وأبقى عهدا للإمامة قررت وخيرها في ستة فتخیرت

مبواً صدق بابن أروى المحب

بذى مهجة عند النبي زكية وذى رتبة عند الإله عليه
وذى سيرة عند الأنام رضية بعثمان ذى النورين بعل رقية

إلى أم كلثوم فأنثى وأشب

رعى الله منه زاكى الخيم بره مواصلة الأرحام ترفع قدره
وتشبه الأصهار تجمع فخره وكان رسول الله يحمد صهره

وصهر أبى العاصى الرضى بعل زينب

هلال كمال والمعالي سماؤه هزبر صيال بالدعاء احتماؤه
غمام نوال بالنضار انهماؤه صريح لأقداح النضار انتماؤه

إلى كل نفاح المكاسر صلب

زكا من أبى عمرو حضور وغيبة وفاز مزجيه وللعذل خيبة
له بالندى حب وبالنسك هيبة تلاقى عليه عبد شمس وشيبة

وإن يلتق مزنا وافد الريح يسكب

وبويع عنه بيعه نال رشداه بأكرم كف أكرم الخلق مداه
لذلك أصفته البرية ودها إذا ما تلقته الملائك ردها

حياء مردى بالحياء مجلب

تقدم بالإسلام أكثر صحبه ونال الرضى فى هجرتيه لربه

وأنفق فى الحسنى كرائم كسبه وجهز جيش العسر - منفردا به

وقال لخليل الله سبرى وأهذب

أطاق خطوبا ما ادعى الهضب طوقها بنفس إلى الفردوس عجل سوقها

فأبدت له الولدان والخور شوقها وفى مسجد التقوى المؤسس فوقها

مناقب وافت إذن كل منقب

توقى يمين الصدق بوم حكومة بألف مئات واقتدى من خصومة

ونال من العليا كل مرومة وسقى عباد الله من بير رومة

بأنجع من ماء الغوادى وأعذب

أذال مصون الصين بالخیل تلتقى وفى جمع إفريقية بالتفرق

فمزق شمل الكفر كل ممزق وكم أثر باد وفتح مشرق

وآخر فى أقصى البلاد مغرب

تنازع قوم فى تلاوة أحرف فالزم صحب المصطفى كتب مصحف

ورد له القراء دون توقف وذاد عن القرآن كل محرف

على الله فى آياته متكذب

رعى الدين رعى الهزبرى المنجد على حذو خليه من البر يحتذى

وسل كل حبر من بخارى وترمذ إلى أن أتاه صادق الموعد الذى

تقدم يوم القف بعد تجنب

فلما انقضى نسك به وعبادة تشوقت الحسنى له وزيادة
وقيل غدا صمه تفطرك سادة وأفضت به نحو الجنان شهادة

محصة وافت به حش كوكب

نهى عن قتال - والقلوب كليمة وصحب الهدى بالذنب عنه رغبة
وصابر فى بلواه - وهى أليمة وسيقت إلى الرحمن نفس كريمة

على الحق فرى جلدها عض أكلب

هناك تحرى القوم فى الفضل نده فسد مكانا ذو المكانة عنده
وأغتنه شورى أن يجدد عهده وبوبع خير الناس لاشك بعده

ولو جوبوا فى الأرض كل مجوب

أبو الحسن المرضى من خير معشر لفاطمة الغراء بنت غضنفر
صفى وصهر وابن عم موقر على أبو السبطين صاحب خير

وعمر بن ود والوليد ومرحب

بغر المزايا مفرد دون شركة عفيف له فى الحرب أهول فتكة
سطا حاسرا والبأس أحصن شكة أقام على الأفلاذ أفلاذ مكة

بيطشة بدر كل نوح ومنذب

عدا عن قليب الصفو صف عديها وجلاهم أن يرتعوا فى حليها
ورواهم بالطعن قبل رويها فكم منطو من سرهم فى طويها

وقد كان كالجذع الطويل الشذب

على فضله تشنى الخناصر أولا وتثنى الطلى عجبا به حين يجتلى
بدا حالى الأسماء أو سامى الحلى لعبد مناف ذى الزعامة والعلی

أبى طالب أعجب به ثم أعجب

تبنى رسول الله فيما رويته فأنس محياه وأوحش موته
سما صيته فى العرب وامتد صوته مطل على أبيات مكة بيته

ومقتبس من نوره كل أخشب

لكهف قريش حتف كل معاند لمقلها الواقى لها فى الشدائد
لسيدها الملقى له بالمقالد لحامى رسول الله من كل كائد

ومانع الفادى له المتعصب

يروع العدا حتى بطارق طيفه ويعطى مناه من مناه وخيفه
ولم يأل نصحا للغفارى ضيفه ليالى لا يأوى إلى غير سيفه

ولا ناصر يعدى ولا متحزب

وإذ جاء غاو للنبوءة كائد وقى ربها ثم ابن عم معاضد
عشية يجفوه شقيق ووالد وإذ جل قرياه رجال أباعد

يطوف منهم بين صل وعقرب

أقام فروض الخمس وهو ابن خمسة وزاد لهدى انبيه تطهير عرسه
فصف لى رحماه وشدة بأسه له بأبيه الحق ثم بنفسه

علينا - وعقد الدين لم يتأرب

أفءات له دثر الخلال ظباته فأفنته فى أدنى الزمان هباته
فقد قبلت عند الركوع زكاته وقد سبقت أهل الصلاة صلاته

بسبع فكم فضل هناك موجب

وآخاه أعلى من تعمم وارتدى وشرفه بالبر فى كل منتدى
وأحفى له البشرى وأضفى له الجدا وخص من الزهراء فاطمة الهدى

بأزكى نساء العالمين وأطيب

جرى والصحاب الغر فى شأو سؤدد فشاركهم فى مجدهم شركة اليد
وسوغ مجدا حازه حوز مفرد وفضل بالسبطين سبطى محمد

ولا سبط فى الدنيا فشرق وغرب

فأهلا بأدنى صاحب وأمته تنكب عن وعر السبيل وأمته
وسار على هدى الرسول وسمته ومنزله منه على قرب بيته

كهارون من موسى فقرب وقرب

فكم كربة جلى عن الدين عضبه ولا مشهد إلا يشاهد قربه
ومن كنت مولاه كفته وحسبه وعهد إليه أنه لا يحبه

سوى مؤمن فاحكم على المبغض الغبى

إخاء رسول الله أثل مجده فمن ثم يستملى تقاه وزهده
إمام هدى فى العدل أنفل جهده وسيان ترب الأرض والتبر عنده

وقدر عديم فى الحقوق ومترب

إذا جنت الظلماء طار هجوعه وقطعها قرآنه وركوعه
وأضواء من زهر النجوم دموعه ولما تولى الأمر زاد خشوعه

وطلق دنياه وقال لها اغرب

أبعد ابن عم للإمامة غاية وقد عم إجماع وخصت رواية
أما تنجلي عن أهل شك عماية وفي قتل عمار بصفين آية

وفي نابحات الركب ليلا بحوآب

ندين بحب للجماعة جامع ونبدع مدحا في قواف بدائع
سوابقهم تكفى فحد عن منازع وكل إلى صفح من الله واسع

وجنات عدن فاطرح قول مجلب

سلوا المستحلين الذين أحلهم حرورية ذات الحرور أحلهم
تلقاه فيهم صادق الوعد قبلهم وإن قتال المارقين وقتلهم

لأعظم برهان وأكبر موهب

كفاه نقابا واستمعها مناقبا إشارته للنفود ينعت خاضبا
وإنشاده بيت الزبيرى - عاتبا وأخباره عن ذى الشدية غائبا

بخبء فلما قتلوا ظهر الخبى

إذا رامت الأقوال حصرا لفعله فقد عاجلت من عاجل عد رمله
ولم تقض بعض الحق بالمدح كله وما تبلغ الأوصاف غاية فضله

ولكن كل الصيد فى جوف قرهب

دهتنا فأهوال المعاد معادة خبيئة خب من مراد مرادة

تولى فأحزان العباد عبادة إمام سعيد صبحته شهادة

بضربة أشقى العالمين وأخيب

ضياء لميراث النبوة قد خبا فأظلمت الآفاق شرقا ومغربا

سكينة أرض أذهبت يوم أذهبا فأعزز على الإسلام ما هبت الصبا

بشيب كريم من شواه مخضب

إلى مجده عجا بأبداع مدحة ومن رشده فزنا بأوسع منحة

وعن فقدته أبنا بأفجع ترحة وفى منتهى الشورى الزبير وطلحة

وسعد تناهى كل فخر ومنقب

أكابر أعلام على العلم نقبوا قضى الله أن حبوا لديه وإن حبوا

قد انتخبوا للسابقات وأنجبوا فذا ابن عبيد الله طلحة موجب

وهذان مفديان بالأم والأب

فمنهم مجاب الأدعيات برحمة وأسمح معطاء وأشجع بهمة

فلم لا نقضى العمر فى رعى حرمة وذا صنو صديق وذاك ابن عمة

وذلك خال من يشابكه ينجب

حلا صفوة الأبرار أصفى تحبى هواهم من الدارين ذخرى ومكسبى

وبالمدح فيهم نحو ربي تقربى وفضل ابن عوف والأمير الرضى أبى

عييدة فضل من يغالبه يغلب

بإنفاق ذا يفنى تليد وطارف وذا زاهد لم تستمله الزخارف
فحسبى وصفا أن تحير واصف وعاشر أهل الطود والطود راجف

عريق هدى فى الجاهلية مثقف

تسامى عن الدنيا الدنية همة ولا مشهد إلا سطا فيه بهمة
وإن غاب عذرا يعط أجرا وقسمة ويأتى أبوه فى القيامة أمة

وقد كان فى الدنيا كعنفاء مغرب

هم عشرة حازوا الكمال ضريبة وحلوا بفردوس قصورا رحية
وواحدهم ما زال يلقي كتية وكل لفهر أو قصى صلبة

يقارع منهم كل نبع بأصلب

مفلل هندی منيل هنيذة حلاه كسلسال بصفو شهيدة
فكيف لنا عن حبهيم بعض حيدة وأين بنا عن حمزة وعبيدة

ليوم كفاح قاتم اللون أكهب

فكم قد أباحا من نفوس منيعة بمشرعة تحمى أجل شريعة
وقاطعه سلت لأهل قطيعة هما بطشا فى الحرب بابنى ربيعة

فعادا نهابا بين ناب ومخلب

هما هضبتا ثهلان أرسى وقاره فذا ملجأ الخاشى وذا مستجاره
فمن قل حامية وقل غراره فذا أسد الله المنيع ذماره

متى يلقيه ليث الخفية ينشب

هما أوحداها فى مساع نبيهة فذا خير بذال لنفس نزيهة
وكعب إياد فى أياد بدهية وذا بهمة لا يثنى عن كريهة

متى يدع يوما للردى يتوثب

وللأب صنو ما أبر وأمجدا عميد قریش مستغاثا ومجتدا
ومن ورث أعقابه الملك سرمدا وذو الصوت والصيت البعيدين فى الندى

وفى الحرب مهمى يطعن القرن يضرب

يعانق أعطاف القنى دون أبهة ويعرض سمعا عن تسمع بهة
وينده ذا حرب ويحبو بندهة أبو الفضل مأوى الفضل من كل وجهة

ومفضى سماء الفخر من كل مسكب

أنيس رسول الله - والسمر أشرعت يفرق عنه ما هوازن جمعت
ويثبت فردا والضراغم صرعت دعا فى حنين دعوة فتقطعت

بنو قيلة من محضر ومخبب

سقى حرميها والحفاظ يهجه فذا بدعاء للسماء عروجه
وذا بزال تعتفيه حجيجه مقبل ظعن الحى أوفت حدوجه

فناهيك من سبط المفاصل شوذب

مضوا بمواض للنفوس مفتية وأرواح صدق فى الوغى مستميتة
ففى الله قد فازوا بأشرف ميتة وفى ذى الجناحين الشهيد بمؤتة

فضائل مهمى يحسب الرمل تحسب

صفى لخير الخلق أحفى معاشر ومشبهه من بين صيد أكابر
بخلق بهاء أو بخلق مآثر أفض عباد الله قلبا لكافر
وأرأفهم بالمؤمن المترهب

عمومة خير الخلق قدوة وأقمار أم الفضل للفضل صفوة
وستتها ما مثلهم قط إخوة وللحبر عبد الله والبحر دعوة
علت واثنت مقبولة لم تحجب

جمال لدى النادى ثمال لدى الندى روى هادى الأحكام أو حكم الهدى
وفاق شيوخنا - والصبابعد مرتدى وفقه فى التأويل والدين فاعتدى
إماما متى يقرع به الخصم يكيب

بنو هاشم سادات دهر بهم حسن فلولاهم لم تبق دنيا ولم تكن
إذا الحرب جاشت فالحصون لهم حصن ومولاهم زيد الكتائب منهم ان^(١)
تماء وإن تنسب قضاة ينسب

تفرس قبل العبث صدق علامة فآثر ملكا من نبى كرامة
على رفعة فى قومه وزعامه أبو الحب فى حجر النبى أسامة
فاحب بهذا ثم هذا وأحب

مدحت رسول الله من شغف به وأحبت أهليه بفضلة حبه
وأجللت أبرارا تساموا بقربه ومن ذا الذى يحصى فضائل صحبه
وإن يستمد البحر ينزف وينضب

(١) فى هامش المطبوع: «حرصا على الوزن والقافية فى الشطر الرابع من هذا التخميس وحتى يستقيم الوزن فى الشطر الخامس. أثرنا تقسيم كلمة (اتماء) فجاءت هكذا».

وفت لرسول الله صفقة كفهم فهم معه فى الخلد فى نعم طرفهم
كما معه خاضوا الردى يوم زحفهم هم صفوة جاء الكتاب بوصفهم
فما بعده فضل من المتأدب

فواخجلى لولا عميم ارتياحهم فضحت سهى نظمى بشمس التماحهم
وأغرقت أوشالى ببحر سماحهم بلى إن فى أوصافهم وامتداحهم
رضى الله فازهد فى المديح أو ارغب

فكم فى معد من معد ذخائر وفى يعرب من معرب عن مفاخر
صحابة خير الخلق خير معاشر وكم فيهم من مستميت مهاجر
سريع إلى أقرانه متلب

وناشئ سرو فى سراوة أبطح وداعى نزار صالح السر مصلح
وذى يمن سمح الخلائق مسمح وندب من الأنصار غمر ممدح
محيا مبكى بالقلوب مندب

بخزرجه أو أوسه - وهما هما أعز الهدى لما حماه حماهما
فكم أنجبا ممن يشيد علامهما كسعد أبى قيس وقيس كلاهما
يمانى صلاء كاليمانى المشطب

يقود المذاكى سابغات ظلالها وقد قد من خد العزيز جلالها
وصاغ بتيجان الملوك نعالها تحامت قريش بأسه إذ سما لها
بأرعن فى قتل الكمأة مدرب

بتكريمه دان الأكارم أجمع وغيرته فى الله تحمى وتمنع
ونار قراه بالكباء تضيع وقال رسول الله - برا به - اسمعوا

لسيدكم فى محفل متلجب

من المستحقين الرضى عند ربهم برائق جدواهم ورائع حربهم
تخير الهادى نقيبا لحزبهم من الخزرجيين الذين سمت بهم

خئولته فى كل مجد منصب

حوى الشرف السعدان فاسمع مقاله أرى مرتع السعدان لا نبت طاله
فللساعدى العز يضيفى ظلاله ولابن معاذ سيد الأوس ماله

حديث لعمر الله غير مكذب

فحبى من طلق المحيا وسيمه ملائك عدن هزة لقدمه
أقلت سريرا سار فوق نجومه مناديله قد أنبأت عن نعيمه

وكم شاهد ينبيك عن متغيب

قضى من جهاد الشرك كل لبانة وحكم فى طاغين أهل خيانة
فوافق حكم الله وفق إعانة وأبدى اهتزاز العرش عن ذى مكانة

يقال له أنعم وأرض غير مشرب

تحمل عبء الحق دون شكية وجاد بمال ثم نفس زكية
فعين التى تبكيه غير بكية من الأوس فى جرثومة مالكية

دراية فادراً بها الناس تغلب

ومنهم سماك خام عنه المصالت وتواب صدق فى السلاسل قانت
وذو المنطلق الحكى ينميه صامت وعن لنا قبل المعاذين ثابت

وحارثة سهل بكل ورحب

شجانى فراق للأحبة باغت فجسمى به خاف وروحي خافت
فنيث وودى فى ذوى النصر ثابت ميامن منهم أخطب الناس ثابت

وكان متى يستأسد الخطب يخطب

رآهم توقوا كل إثم وحوبة فزادهم تقوى وتجديد توبة
وشد عهودا فى حضور وغيبة وقام وقد حل الرسول بطيبة

بأسير قول فى البلاد وأذهب

وقال خلعنا اللات خلع لبوسنا سنشرب فيك الموت ملء كئوسنا
ونعرض عن أقمارنا وشموسنا وقال متى نمنعك منع نفوسنا

وأموالنا ماذا لنا من تثوب

حلت عندنا فيك الوغى وهى مرة فماذا توفى أمة بك برة
إذا حان للخلق الذى باد - كرة فقال خلود فى الجنان ونضرة

فقال رضىنا فادع من شئت واندب

وحنظلة بشراه فى فوز سهمه لقد طهرت بالسفح طاهر جسمه
ملائكة نعم الأساة لكلمه وحارثة قال الرسول لأمه

بيدر وقد قالت لعبرتها اسكب

رويدك من فرط الأسى والتأسف أيكى لمحبور بقصر مزخرف
ومتكىء فيه على خضر رفر أفيقى أفيقى إن حارثة لفى

نعيم جنان للحسيفة مذهب

لهم قدم للصدق بالشهب تحتذى وسل بمعاذ أو أخيه معوذ
هما جدلا عمرو العدا دون منقذ ومنهم معاذ أعلم الناس بالذى

أحل لهم وبالحرام المجنب

خودود ظباهم زينتها أسالة وعند قناهم للقلوب رسالة
وأنفسهم فوق الصفاح مسالة وعند معاذ بن الجموح بسالة

وشدة بأس كالهزبر المغضب

رأى قلبه روض الجنان منعما فخاض له نهر الصوارم خضرمما
نضى لبسه لما أتى الله محرما عشية ألقى درعه متقدما

إلى الموت لم ينكل ولم يتذأب

مساميح لم يسمح زمان بمثلهم إلى نقباء بالمناقب حلهم
فمنهم أبو أيوب مدره حفلهم ومنهم أبى اقرأ الناس كلهم

وآتاهم لفظا ونطقا بأصوب

نجار من النجار فى بيت سؤدد وتهنئة بالعلم فى خير مشهد
وسعاه من شاد السماء فقد هدى وزادته إخباتا قراءة أحمد

عليه فأى الدمع لم يتسرب

ولا قيل إلا هاب أبناء قيلة حموا عند خوف آثروا عند عيلة

لهم حكم أزلت بمولى سخيلة ولابن حضير آية ذات ليلة

وقد غشيته ظلمة ذات هيدب

تهجد بالقرآن ليل سهاده فأبصر مثل السحب فوق سواده

بها سرج كالنجم عند اتقاده وخاف على يحيى مجال جواده

ولا ضمير فيها فاتهد واتل واعجب

وذو الرأي كاد الكفر فى قلب عفت وذو العين ردتها أجل يد شفت

وذو السيف أعطاه الجريد فأرهفت وذو النور عباد بن بشر تكشفت

دجاء بنور من عصاه مشغب

أماجد سادوا كابرا إثر كابر إذا خطبوا فالشهب أدنى منابر

سل الوحي عنهم تلف أخبر خابر وساجل بعبد الله ثم بجابر

ونط بهما من شئت تفضح وتتعب

نجيبين فى العليا أطلا وأعرضا بكفيهما صمصامة النصر تنتضى

لقد سلكا نهجا من البر مرتضى فذاك أظلته ملائكة الرضى

بكل جناح بارد الظل أهدب

أب طاهر وابن تقيل سلبه كلا الفاضلين استوجبا الفضل كله

فذاك شهيد - كرم الله نزهه وهذا رسول الله مستغفر له

متى يطلب الغفران يرض ويطلب

لهم خلق إقدام وخلق سجاحة وألسن إفصاح وأيدى سماحة
فكم من صباح أخلجوا بصباحة وحسبك فى الهيجاء بابت رواحة
وعند القوافى رائع النظم مستبى
مفید سیوب عن سیوف مفیة ورابط جأش فى كماء هبیة
وناطق شعر فى حروب صموة وثالث آساد الشرى يوم مؤتة
ولا خطو إلا فوق أزرق قعضبى
بشأویه من قول وفعل حوى المدى جرى على الأبطال مشى وموحدا
ومبتدع للنظم إن راح أو غدا فله من حلو الشمائل إن حدا
ركابا أكلتها التنائف تطرب
سخرى یعید الأسخياء فداءه كمى یعد المشرفى رداءه
محب یلبى كل روح نداءه لذلك ما استدعى الرسول حداءه
وقال له حرك بنا العیس تنهب
ونعم ابن جحش مشبه الخال رفعة أشم العلى إذ نال فى الله جدعة
ومن أهل بیت بادرُوا الحق سرعة وإن جلیبیا وقد حس سبعة
لمسعر حرب فلیبك ویندب
بنفسى شهید شاهد الحق صنعہ تعجل رضوان إلى الخلد رفعه
عروسا بحور تحسب الدم رده تولى رسول الله فى اللحد وضعه
على ساعديه أى نعش ومركب

حلا كجنى نحل بماء غمامة نسينا ابن سعدى عندها وابن مامة
فيا روضها ضاحك بثغر كمامة وأهلا وسهلا بعد بابن حمامة
بلال الملقى فى الإله المعذب

بسابق حبش سائق لهم غدا بحافظ أوقاف الفروق تعبدا
بمن تذرف العينان مهما تشهدا بأبيض ما تحت الضلوع من الهدى
متى يطلع فى ظلمة الليل تنجب

وأسمر ما للطعن سدد لدنه وأزرق ما فوق المعاطف سنه
وأحمر ما فى الروع كسر جفنه وأخضر ما تحت القباء كأنه
حسام متى ينفح به القرن يتبب

أضاعته كفار أبى الله حفظهم وحضوا عليه فاغتنى الخسر حظهم
فسبحان من أعمى عن الرشد لحظهم يسومونه شركا فيجلب غيظهم
بتوحيده لله من كل مجلب

بترجيعة ذابت نفوس الخلائق فكم ساق للتوحيد قلب منافق
وكم شاق للفردوس أهل الحقائق وكم من شهيد فى القيامة صادق
له من مدى صوت الأذان المهيب

وفى غزوة والكفر رهن بشته شجى بأذان طال عهد بوقته
وذكر عصر الوحى من بعد فوته وكم عبرة بالشام فضت لصوته
وأحضرها من بعد طول تغيب

وقالوا رجونا حاجة منك فاقضها فلما دنا وقت الصلاة بفرضها

وقيل له أذن بشامك ترضها بكى عمر والمسلمون بأرضها

لذكرى حبيب بالبقيع فيثرب

قضى فى جهاد واجتهاد مردد شرى تعباً يفنى بروح مخلد

فلا بن رباح كل ربح مجدد ولا بن سلام عند عيسى وأحمد

وموسى مكان المخلص المتقرب

بما جعل التوراة حومة حومه تحقق بعث المصطفى قبل يومه

فأعرض عن عدل القبيل ولومه ولما أراد الله إخزاء قوميه

وكانوا جميعاً بين عاند وكذب

تجنب إفك الفاسقين ومينهم ودان لرسل الله لم يلو دينهم

إلى أن رأى ختم الجميع وزينهم وكان قديماً لا يفرق بينهم

بنور من التوراة عن كفرهم خبى

فلما اهتدى وارتاب أهل التهود ووقف منهم بين شكر لسؤدد

وبين اغتياب أن دروا أنه هدى طوى عنهم إيمانه بحمد

وقال متى أظهره أبهت وأسبب

وقال له أقبلت للرشد قابلاً فأخف عن الأقوام شخصى عاجلاً

وكن لهم عنى - فديتك - سائلاً فلما انتهوا فى مدحه قام ماثلاً

يجادلهم فاستقبلوه بأزيب

ومن فقهاء الهجرة المدنية مفاتيح الاستفتاح عند السرية
وحلبة سبق للجنان العلية وما لابن مسعود ولا بن سمية

وسلمان والندب الغفارى جندب

وسالم قرآن به ائتم كبرهم وداعى أذان حين يطلع فجرهم
ومصعب الدارى لله درهم من الفضل لا يحصى فحسبك ذكرهم

وإلا فقس خضر البحار بمخضب

فلله ما اتقى وأنقى صحيفة مراتبهم تعلو السماء منيفة
وليلائهم تحيا رجاء وخيفة وأيام سيف الله أردت حنيفة

وسلت عليها كل أبيض مقضب

سيوف عنا قسرا لها كل قسور وأسكت ناقوس بصوت مكبر
وعوض من قس خطيب بمنبر وبشر منها آل كسرى وقيصر

بملك شعاع مستباح مخرب

سبى الفرس من تيجانهم أى حلية وقسم روما بين قتل وجزية
ومن كل أهل البغى فاز ببغية وأى كفور لم يرعه بفتية

تسقى عداها بالزعاف المقشب

عراق وشام والحجاز به فدى متى تأتها تسمع لدى كل مشهد
قضى خالد فينا بفتح مخلد وما هى إلا بطشة من مؤيد

متى يقعد الآجال تنقد وتصحب

صحاب رسول الله فى نعت ناعت كأشجار طيب فى أغص منابت
 سما فرعها والأصل أرسخ ثابت وإن أبا زيد وزيد بن ثابت
 لفى شامخ سامى الذؤابة أرقب
 هما أحكما وحي الإله وأتقنا هما جمعا حفظا ولفظا محسنا
 لقد بهرا فيما أسرا وأعلنا وفى آية تتلى كما نزلت لنا
 وتبيين فرض إن تعداه يذهب
 بصحب الهدى أبدى الزمان اختياله غداة غدوا إجماله وجماله
 فلوا أومئوا للأفق نالوا هلاله ولو نيظ فخر بالثريا لناله
 أبو طلحة عفوا ولم يتصعب
 بسراء أو ضراء أنفق ماله وفى السر والإعلان واصل آله
 وصيحته فى الحيش هدت جباله ولما تناءى البر عن أن يناله
 بغير سخاء عن نضيد مركب
 وأيقن أن النفس تردى بضعها وأن سماح النفس من غير منها
 بفتح للأبرار جنات عدننا سخت نفسه عن بيرحاء وحسنها
 وعن كل قطف مائل العطف مرطب
 وكم قاد مقداد عرابا سوابقا صهلن رعودا واختطفن بوارقا
 فأهلكن ذعرا كافرا ومنافقا وجاء صهيب سابق الروم سابقا
 يقود إلى دار الرضى كل أصهب

وغالبه عن هجره آل غالب فأعطى القنى يرجو لقاء الأصحاب
فقل ربحت البيع يا خير كاسب وأن أبا هر لألزم صاحب

وكلهم من حاضرين وغيب

مبشر دوس حين لاذوا بركنه مسددهم حتى أنابوا بيمنه
حظى لدى المختار إن زار يدنه لزم رسول الله فى شعب بطنه

فسيان إن يعرق وإن يتنعب

وعى الذكر فى تهجيريه وبكوره وواصل حفظا باتصال حضوره
وبالبسط للثوب استقى من بحوره فأض بعلم يستضاء بنوره

متى يعترض من دونه الصعب يركب

وزان ابن عم زانه النور عمة فقال عسى فى ذيل سوطى تتمة
لئلا يظنوا مثله بى ملمة وكان لدوس حين أسلم رحمة

بها استنقذوا من حاجم ذى تلهب

ونجل حوارى حرى برعيه بميلاده سارت أكابر حيه
وتعسا لقوم كبروا عند نعيه ولم يأل عبد الله فى حسن هديه

سموا إلى فاروقه فاسم وأقرب

فبورك من خاش لذى العرش روايته روت بأحلى المشارع
وكم نفعتنا عنه آثار نافع له كل برهان من الفضل ساطع

ورؤياه رؤيا أفصحت بالمغيب

ولابن ربيع فى أعز المشاهد مقام سما عن مخبر أو مشاهد
وبالنصر وصى غائباً بعد شاهد وفى أنس بن النضر أعدل شاهد

ببريمين عن يقين تحوب

تنسم عدنا يوم تحيىص شهد فقد ولم يعرف بعضو سوى اليد
وقال كذا فليتدب كل مهتد ولابن أخيه الندب خادم أحمد

فضيلة مختص لأبياته ربي

فطوبى له من طاهر القلب شهمة مصيخ إلى قول الرسول بفهمه
ومكمل ما يلقي له ومتممه أبى حمزة أكرم به وبأمله

فكم لهما من حظوة وتقرب

ومن سابقات نيرات آياتها ومن مكرمات مكرمات روايتها
ومن حسنات أعليت درجاتها ومن دعوات خلدت بركاتها

طباهم وأرضاهم بها خير مطبى

وكعب علا كعبا على رغم شامت ومنطقه للحرب أنعت ناعت
وتيب عليه توب أروع قانت وحسان حسان الحسام بن ثابت

يقول وروح القدس للقول مجنب

محا بامتداح المصطفى طيب نومه وفى الله لم يحفل بمولم لومه
وفى محفل الإنشاد أحفل بيومه له مجده فى قومه ولقومه

به رتبة زادت على كل مزرب

وصوت ابن قيس إذ يرتل حزبه مزامير داود به تتشبه
وخبب خباب فلم ينس ربه وحاطب لخم أعظم القوم ذنبه
وحشوا عليه الموت من كل محطب

وفرقة هدى أفرقته وهددت وكانت له زلفى عن النار أبعدت
وأعذار إخلاص لدى الله مهدت فنهتهم عنه الرسول وقد بدت
مقاتلة للشائر المتوثب

ولقاء بشرى ساميا قدر أهلها أوى كل ذى سبق لوارف ظلها
وفى محفل رداه حلة حفلها وصددهم عنه ببدر وفضلها
وشداته بالسهمرى المقلب

تحلى خبيب للتعق خير زينة وماذا تلقى عاصم من سكية
غداة حمته الدبر أى أمينة وفاز حرام يوم بئر معونة
بقطر دم يستن من كل مشخب

منهم وقور السميت سكن طيره عويمر القاضى الذى شاع خيره
فللعدل مثواه وللغزو سيره وعالم سر ليس يدريه غيره
حذيفة لم يمدل ولم يتسرب

وحسل أبوه يوم أخلص غزوه سيوف إلى الغايات لم يثن شأوه
وإن ابنه بر إذ اختار عفوه وإن ابنى العاصى هشاما وصنوه
على نهج إيمان منير مصوب

وفى اليمن الإيمان ليس بمخفف وإن عديا للمحامد مقتف

وزاد قديما للقدوم المشرف وإن جريرا خير ذى يمن لفى

ذؤابة مجد باسق متهيب

لبهجة مرآه بيوسف قدوة وجقت له لولا الديانة نخوة

ببسط رداء فيه عز وحظوة وتمت له من خاتم الرسل دعوة

تقلب منها تحت عقد مؤرب

تلقى وصيات الرسول بوعيه وروح من طاغوت دوس وغيه

براشد منحاه وصائب رأيه وأصحمة أرضى الإله بسعيه

وذاد عن الإيمان كل مخيب

رأى الحق عن بعد بناظر قلبه وعاض من التثليث توحيد ربه

مقرا برسل الله طرا وكتبهم وكان ملاذا للرسول وصحبه

وبان وبانوا عنه غير مؤنب

أصاخ لوحى وهو باك موله وأعظم أمر المصطفى وأجله

وساق مطيعا مهر رملة كله وصلى عليه أحمد شرفا له

وأوصاله فى النعش لم تتحجب

هنيئا لزهر بايعوا تحت سرحة وفازوا من النور البهى بلمحة

ونالوا من الدارين أشرف منحة وناهيك من فخر الأشج بمدحه

يقصر عن إيجازها كل مهضب

لهم سؤدد قد أعجز الشعر وصفه ومن ذكرهم زهر تأرج عرفه
كمامته طرسى وبالسّمع قطفه وقرة نالت خاتم الوحي كفه

وفاز بها فوز السعيد المنجب

محا شوقهم عن ناظري طيب نومه وإن هواهم فى الحساب ويومه
يفى بصلاة المتقى وبصومه وما فضل أصحاب النّبى وقومه

لمن رام إحصاء له بمحسب

هو البحر والخضر البحار تمده هو النجم من يبغى النجوم ترده
هو القطر لا يرجى من القطر عده ولكنه ذخر وأجر أعده

وأجعله أمنى وحصنى ومهربى

لخير الورى أخلصت دون وليجة وسبطيه أرثى ذا شجون مهيجة
وأصحابه حبوا بكل أريجة وأزواجه والفضل فضل خديجة

وكل له فضل المصون المطيب

ثنا أمهات المؤمنين محسن فهن أمان للورى وتيمن
لهن على النسوان فضل مبین ولكنها كانت وما كان مؤمن

سواها فنقر فى البلاد ونقب

تقى الله فى أعلى المراقى أجلها حبت وفرها تحوى المفاخر كلها
وحيا سلام للسلام محلها وسبط الهدى منها لفاطمة لها

فحسبك من فضل بفضل مرجب

شهيدان ذا جهر أو ذاغيبة قضى هما قرتا عين لأشرف مرتضى
 وريحنتاه من زمان به أضا هما سيدا الشبان فى جنة الرضى
 وخير كهول الأرض شرق ومغرب
 وفى حجرات المصطفى فصل منطق وآيات برهان وحكمة^(١) منتق
 أذاع بها الزوجات غربا لمشرق وعائشة صديقة لمصدق
 ملء من التقوى رءوف مؤدب
 وكم سنن تقضى صحائح طرقها بتفضيل أم المؤمنين وسبقها
 على العلماء استدركت وبحقها مبرأة جاء الكتاب بصدقها
 وتكذيب إفك الفاجر المتكذب
 ومثلها جبريل وهى بخدرها على الشرف الباهى فأعظم بفخرها
 ولم يأت وحى قط فى لحف غيرها ومات رسول الله ما بين سحرها
 إلى نحرها توديع راض مقرب
 ولا زوج للمختار إلا مبرة على الغير خصتها من الله أثرة
 شمائلها نسك وصون وطهرة وكل لنا أم هنالك برة
 على برها تحبو الرجال وتحتبى

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ...﴾ [الأحزاب].

وخير أناس يقتدى بهداهم سراً رأوا خير الورى ورآهم
فحسبهم فضلاً به وكفاهم صحابة صدق من يطر بحماهم

فنحن براء منه باعد وجنب

أيا صاح دعنى من ثراء وعيلة ومل بى إلى صحب الهدى خير ميلة
أحبر ثناهم كل يوم وليلة وعرج على الأنصار أبناء قيلة

وبغضهم كفر فعذ وتحب

كفانى عما بالقوافى قفوته ثناء عليهم فى الكتاب تلوته
أمانى وإيمانى بهم قد رجوته كرام لهم محيا الرسول وموته

تأسوا وواسوا من جواد ومحرب

تناهوا من الإيثار فى كل نصرة إلى أن قروا أرواحهم كل شفرة
حضور ببدر غيب عند بدرة يحبون من وافى إليهم بهجرة

ويلقاه منهم كل سمح مرحب

صحاب رسول الله فى الأرض أنجم ليرشد حيران وينجاب مظلّم
بهم فى الدنا نحمى وفى الدين نعصم ساقطع عمرى بالصلاة عليهم

وأدأب فى حبى لهم كل مدأب

تفتح نظمى فى الطروس خميلة فأهديت أزهارا بدمعى بليلة
عساها أتت من عثرتى مستقيلة إليك رسول الله منها وسيلة

تناجيك عن قلب بحبك مشرب

فؤاد بلفح البعد عنك تضرما يطالع بالفكر الحطيم وزمزما
ويلثم شوقا متتداك المكرما يزورك عن شحط المزار مسلما
ويلقاك بالإخلاص لم يتنكب
إلهى ذنوبى كالجبال وأكبر ولكنها فى جنب رحماك تصغر
ومالى سوى مدح الرسول مكفر ترجيت فضلا منك يعفو ويغفر
وراجيك فى الدارين غير مخيب

انتهى التخميس الرائق الأبيات، للخالصية الباهرة المناقب والآيات.
وهذا البيت الأخير - وهو قوله: (إلهى ذنوبى... إلى آخره) زاده
المخمس كله ليكون الختم به. ولم يزد بيتا غيره.

ولا خفاء أنه - رضى الله عنه - زاد هذه القصيدة بتخميسة حسنا،
عاملنا الله وإياه بالزيادة والحسنى، وأنال جميعنا المقام الأسنى.

ومن بديع نظم ابن أبى الخصال المذكور آنفا، قصائده النبويات، التى
عارض بها قصائد حسان بن ثابت - رضى الله عنه - فى رثاء المصطفى -
ﷺ، وقد خمس أبو عبد الله بن حبیش المذكور الحسانيات، ومعارضتها
الخصالية، وأفردها بتأليف، رأيت أن أذكر ذلك بجملته، وكتب فى أوله ابن
حبیش المذكور ما نصه:

الحدائق النيسانية، والطرائق الحسانية، تشتمل بحول الله - على تخميس
المراثى الحسانيات التى طبقت بإحسانها ما تحت السبع الطباق، وعلى تخميس
معارضتها من الخصاليات التى فازت فى أساليبها بخصل السباق، تأليف
محمد بن حبیش، انتهى.

قال - رحمه الله: تخميس الأولى من الحسانيات الأربع، التي عمرت من الإحسان أبهى مربع، محجة في انتساقها عن الغير، مرتبة على مساقها في السير، ترثي سيد الخلق وخاتم الأنبياء، فتبكي بشجوها سكان الأرض وملائكة السماء، صلى الله عليه صلاة تتناهى في تكريمه وإرضائه، وتقضى من حقه ما عجز العالمون عن قضائه، وعلى آله المنتخبين، وأهل بيته المطيبين، وسلم تسليمًا، ورضى الله عن صحبه الذين بدروا دعوته تصديقًا، ومهدوا ملته تغريبًا وتشريقًا، ومن الله - سبحانه - يرجى العون واليسير، فهو نعم المولى ونعم النصير.

أبقى وجود والنُّبُوَّةَ تفقد بأرواحكم جودوا فما الدمع يحمد
أما هدى ناعى الهدى وهو ينشد بطيبة رسم للرسول ومعه

مبين وقد عفوا الرسوم وتهمد

مضى المرشد الهادى لحكم وحكمة وآلت الإسلام أدهى ملمة
فما تخلع الأيام أوثاب ظلمة ولا تمحى الآيات من دار حرمة

بها منبر الهادى الذى كان يصعد

وفضفاض آلاء وضافى مكارم ومهبط وحى من إله العوالم
إلى خاتم الرسل السراة الأكارم وواضح آثار وباقى معالم

وربع له فيه مصلى ومسجد

بأمورة القصواء قد كان خطها ونظم من در الهداية سمطها
نبى كساها الفخر تضيفه مرطها بها حجرات كان ينزل وسطها

من الله نور يستضاء ويوقد

مبادئ هدى تبلغ الخلد غايتها يقربها من قلب ذى الصدق نأيتها
وفى الملاء الأعلى تنشر رأيها معارف لم تطمس على البعد آيتها
أناها البلى فالآى منها تجدد

ولم لا أوفيتها من الحب جهده وقد حازت الفضل الذى فاق عده
إذا زرتها بالقلب أحمد وقده عرفت بها رسم الرسول وعهده
وقبرا به واره فى الترب ملحد

لقد خددت خدى دموعا توردت صحائح آثار لأحمد أسندت
وآيات وحى فى المحارب رددت ظللت بها أبكى الرسول فأسعدت
عيون ومثلاها من الجفن تسعد

صنوف الوجود الجم غيا ومحضرا من الشهب والأفلاك والمزن والورى
وما أبصرت عيني وما ليس مبصرا يذكرن آلاء الرسول وما أرى
لها محصيا نفسى فنفسى تبلد

فلا جسم إلا حلة السقم يرتدى ولا روح إلا رائح غير مغتدى
ولا نفس إلا ذات وجد مجدد مفجعة قد شفها فقد أحمد
فظلت لآثار الرسول تعدد

وقد حبرت من كل مدح حبيره وقد عبرت عما ينمى عييره
بنظم كما وشى النسيم غديره وما بلغت من كل أمر عشيره
ولكن لنفسى بعدما قد توجد

سرت مهجتي تبغى الجنان وخلدها فما يمت إلا المدينة وحدها
وقد نالت الأوطار لم تتعدها أطالت وقوفا تذرف العين جهدها

على طلل القبر الذى فيه أحمد

فطوبى لنفس بالرسول تمسكت لقد عطرت بين النفوس ومسكت
وما الفوز إلا مسلك فيه أسلكت فبوركت يا قبر الرسول وبوركت

بلاد ثوى فيها الرسول المسدد

فيا خاتم الرسل المكين المقربا وأعلى الورى قدرا ونفسا ومنصبا
تقدست قبل الكون تحبى وتجتبى وبورك لحد منك ضمن طيبا

عليه بناء من صفيح ينضد

لفقد رسول الله لم يسلم مؤمن فللكرب أرواح وللندب ألسن
لقد شق يوم فيه للوحى مدفن تهيل عليه الترب أيد وأعين

هناك وقد غارت بذلك أسعد

إمام لرسول لم يزالوا أئمة غدا للعلأ بدءا وللبعث ختمة
وجلّى عن الآفاق ظلما وظلمة لقد غيبوا حلما وعِلما ورحمة

عشية عالوه الثرى لا يوسد

نعموا قمرا كم ضاء عنه نديهم وودهم لو قبل ذاك نعيهم
وزادوا غليلا إذ من الدمع ريهم وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم

وقد وهنت منهم ظهور وأعضد

قد اغتبطوا بالوجد يغلون سومه فهم بين طرف شرد الدمع نومه

وسمع عن السراء واصل صومه سيكون من تبكى السموات يومه

ومن قد بكته الأرض فالناس ألمد

مصاب دهانا بالدواهي الفواتك فبدل أنوار الضحى بالحوالك

وعاض دموعا بالدماء السوافك وهل عدلت يوما رزية هالك

رزية يوم مات فيه محمد

فيا ربنا ضاع العباد فصنهم وقد ضعفوا عن صبرهم فأعنهم

ليوم بعاد قرب الحين منهم تقطع فيه منزل الوحي عنهم

وقد كان ذا نور يغور وينجد

فأين زمان رافل فى قشيبه ببهجة مرآة ونفحة طيبه

إذ الوحي من رب الورى لحبيبه يدل على الرحمن من يقتدى به

وينقذ من هول الخزايا ويرشد

تحرى حراء راعع الليل ساجدا وأظما هجيرا يترك الماء واقدا

وبالوحي أضحي مرشد الخلق راشدا إمام لهم يهديهم الحق جاهدا

معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا

رحيم بأهل البر يرفع قدرهم شديد على الكفار يخفت زأرهم

حيب إلى الزوار يشبع وفرهم عفو عن الزلات يقبل عذرهم

وإن يحسنوا فالله بالخير أجود

إذا جاش أعداء محاهم بنصله وفي المحل يغنى عن غمام ببذله
وإن جلت الجلى تجلت لأجله وإن ناب أمر لم يقوموا بحمله
فمن عنده تيسير ما يتشدد

أقام لأرباب الديانة قسطهم فقد فرسوا فرس الأعادى وقبطهم
فترجو رضاهم أو تحاذر سخطهم فبيناهم فى نعمة الله وسطهم
دليل به نهج الطريقة مقصد

نصيح لخلق الله غيبا ومشهدا موفيهم النعمى موقيهم الردى
مبصرهم فى اليوم شافعهم غدا عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى
حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

أباد الأعادى - والدعاء سلاحه فبالرعب قبل الحرب عم افتتاحه
قوام البرايا بأسه وسماحه عطوف عليهم لا يثنى جناحه
إلى كنف يحنو عليهم ويمهد

وقد صيروا الأملاك بالقهر أعبدا وردوا جميع الأرض طهرا ومسجدا
وبدر الهدى يلتاح من وجه أحمدا فبيناهم فى ذلك النور إذ غدا
إلى نورهم سهم من الموت مقصد

ولما غدا المختار بالحق صادعا وبلغ تنزيلا وبث شرائعا
دعاه تقاه للجنان مسارعا فأصبح محمودا إلى الله راجعا
بيكيه جفن المرسلات ويحمد

فحان لشمس بالظلام التفاعها وزلزل من شم الروابى يفاعها
وحق لأصلاد القلوب انصداعها وأمست بلاد الحرم وحشا بقاعها

لغيبة ما كانت من الوحى تعهد

وكادت قلوب أن تحس اختلافها لفقدان من أعطى هداه ائتلافها
وعادت ربوع الأمن تشكو مخافها قفارا سوى معمورة اللحد ضافها

فقيد يكيه بلاط وغرقد

تغيرت الأشياء حزنا لبعده فيا ظلمة الدنيا ويا نور لحده
بكاه مصلاه الأنيس بورده ومسجده فالموحشات لفقده

خلاء له فيها مقام ومقعد

أرى الكعبة العيا لمنعاه أجهشت بنوح وأدمت خدها حين خمشت
وهمت بتمزيق الستور فأدهشت وبالجمره الكبرى له ثم أوحشت

ديار وعرصات وربيع ومولد

محا أحمد من كان يعبد صخرة ومن طلبوا أن ينظروا لله جهرة^(١)
ومن عبدوا كهلا وعذراء برة فبكى رسول الله يا عين عبرة

ولا أعرفنك الدهر دمعك ينفد

ونوحى على من شاد أشرف ملة بوكافة هطالة مستهله
هى الغيص لكن لم تطق رى غلتى ومالك لا تبكين ذا النعمة التى

على الناس منها سابغ يتغمد

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿...فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ...﴾

فيا أمة الدين الحنيف المكمل نبيك والمعلى لمنصبك العلي
تنقل للفردوس أحفى تنقل فجودى عليه بالدموع وأعولى

لفقد الذى ما مثله - الدهر - يوجد

وما لى لا أفنى وأفنى تجلدى وأجعل مبكاي المورد موردى
وثوبى أكفانى وبيتى ملحدى وما فقد الماضون مثل محمد

ولا مثله حتى القيامة يفقد

أحب إلى رب وأحفى بأمة أبر بميثاق وأرعى لحرمة
أحن لسؤال وأسدى لنعمة أعف وأوفى ذمة بعد ذمة

وأقرب منه نائلا لا ينكد

وهل أبصرت عينا مقر وجاحد بأعلى على من أحد ذى المحامد
وأكثر إعجازا وخرق عوائد وأبذل منه للطريف وتالد

إذا ضن معطاء كان يتلد

وأسمى سناء حين أسرى إلى السما وأبهى سنا مهما ارتدى وتعمما
وأمحي لجيش بالحصاة إذا رمى وأكرم صيتا فى البيوت إذا انتمى

وأكرم جدا أبطحيا يسود

وأوصل أرحاما وأقطع للطللى وأصفح عن جان وأصبح مجتلى
وأشجع مقداما وأسخى مؤملا وأمنع ذروات وأثبت فى العلى

دعائم عز شاهقات تشيد

وأصدق بالقرآن لله مخبتا وأنطق برهانا به الخصم أسكتا
وأهدى لأواب وأسطى بمن عتا وأثبت فرعاً في الفروع ومنبتا
وعوداً غذاه المزن فالعود أغيد
كريم نمته من لى كرامه شريف علا في الأنبياء مقامه
ضياء مساعيه ووحى كلامه رباه وليدا فاستتم تمامه
على أكرم الخيرات رب مجد
على كل بر أن يذوب بلهفه ويغرق بالطوفان من فيض طرفه
على مرسل عم الأنام بعطفه تناهت وصاة المسلمين بكفه
فلا العلم محبوس ولا الرأي يفند
لمثواه قصد الأجر تزجى الركائب بعلياه عند الحشر ترجى الرغائب
صباح به تجلى لكفر غياهب أقول وما يلقي لما قلت عائب
من الناس إلا عازب العقل مبعد
لدى البعث أرجو فوزة بلقائه وقبل فنائى وقفه بفنائيه
مديحي مدى عمرى حبيس علائه وليس هواى نازعاً عن ثنائيه
لعلى به فى جنة الخلد أخلد
إلهى قضيت الذنب فاقض اغتفاره بفضل شفيع قد رفعت فخاره
لعلى غدا والحب يدنى مزاره مع المصطفى أرجو بذاك جواره
وفى نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد